الغُرَبَاء

مجموعة قصصية

الملتقى للنشر و التوزيع

اسم الكتاب : الغُرباء

اسم المؤلف: مريم أحمد حافظ

مراجعة لغوية: شركة دُنىٰ لفنّيات تقديم المُحتوى.

الغلاف : فاطمةفهمي

رقم الإيداع بدار الكتب: /2023

ISBN:

• •جميع حقوق الطبع و النشر محفوظة للدار

ولا يجوز نقل أو اقتباس أو اختزال أي جزء من الكتاب دون الرجوع إلى الناشر والحصول على إذن خطي مسبق منه.

••تنويه :المحتوى الأدبي هو مسئولية الكاتب بالكامل.

الملتقى للنشر والتوزيع 13/17 ش حمدي من مصر والسودان، حدائق القبة، القاهرة – مصر.

رئيس مجلس الإدارة : حسام عزام

MoltaqaPublishing@gmail.com

Tel: +20 109 901 6240

الغُرَبَاء

مجموعة قصصية

مريم أحمد حافظ

إهداء إلى:

مَن أخبرتني أنني وش الخير عليهم مُنذ جئت إلى الدنيا، وهي لا تدري أنها الخير كله؛ إلى مَن أخبرتني ذات يوم، حينما قرأت قصتي الأولى، أنني سأكون كاتبة مشهورة؛ فضحكتُ ولم أصدقها، وها أنا أخطو خطواتي نحو الحُلم؛ إلى أنيسة القلب والروح، مَن دثَّرت روحي ولوَّنت حياتي حُبًا وحنانًا لا ينتهي؛ إلى أمي الحبيبة الغالية.

وإلى مَن أظلَّتني بِحُبها دائمًا، وسَكَبت مِن روحها في وعاءِ قلبي، إلى مَن ترافقني في كل مكان، وأفتقدها بشدة؛ مَن لا تسع الكلمات وصفها، إلى جدتي العزيزة الراحلة.

الحانوتي

لطالما كانت المقابر تجذبني بشدة؛ أشعر أنها مكان يمتلئ بالألغاز والأسرار؛ كُنْتُ أقضي بعض الوقت بين شواهد القبور التي انقطع صوت أصحابها عن الدنيا فجأة ودون سابق إنذار؛ أقوم بذلك دون أن تعلم عائلتي بالأمر، الموضوع كان في غاية السرية والتعقيد؛ فإذا حدث وعلموا بالموضوع فلن يسعدهم ذلك وسيكون مكاني في مستشفى الأمراض العقلية في الحال، لذا قررت التكتم على مهمتي السرية.

منذ الصغر وأنا أذهب إلى مكاني المفضل بعد المدرسة، في البداية كنت أذهب من أجل زيارة جدي العزيز ومع الوقت بدأت أزور كافة الموتى هُناك، والذين لا أعرفهم حتى، ولم يعد يتذكَّرهم أحد، وأبدأ بتلاوة الفاتحة والدعاء لهم، وأقضي ساعات طويلة متأملًا تفاصيل المكان من حولي. ما أثار دهشتي أنني لم أكن أشعر بأي خوف أثناء جلوسي بين الأموات، بل على العكس أشعر بالكثير من السكينة والاطمئنان وأنا أستمع إلى حسيسهم.

في أحد الأيام التقيت بعم "إسماعيل"، وهو حانوتي المنطقة الذي شغل هذه المهنة منذ ما يقرب من ثلاثين عامًا، وبما أنه يراني تقريبًا كل يوم أتجول هناك أو أمُرُّ من أمام دكانه، فقد نشأت بيننا علاقة قوية، حتى أنني تعرفت

على زوجته، الخالة "فتحية" التي كانت تحب رؤيتي وتغدق عليّ الحلوى كلما سنحت الفرصة.

كان يسرد على مسامعي كل ما يعرفه عن هذه المهنة وعن مدى روعتها، على الرغم من نفور الكثيرين منها واعتبارها كابوسًا مخيفًا، حتى أن البعض يطلقون عليه رجل الموتى أو شبح الموت ولم يكن ينزعج لذلك؛ فحسب وجهة نظره، يرى أن هذا العمل طريقة مثالية للتقرب إلى الله وأنه منذ شغل هذه المهنة لم يعد يخشى الموت.

فكم يحب مهنته كثيرًا، التي انتقلت إليه بالوراثة من جد جده، وأحيانًا لا يأخذ مالًا مقابل أتعابه لأنه يفعلها لوجه الله. أخبرني أيضًا أنه يرى الأموات، الذين يدفنهم، في غرفته يتسامرون ويحكون له عن حياتهم السابقة في الدنيا، فلم يقتصر الأمر عن مجرد الغُسل أو الدفن بل امتد لأكثر من ذلك، وكان يتحدث إليهم حتى لا يشعروا أنهم وحدهم ويستمع إليهم، بدوا سعداء، كما كان يروي لي؛ كنت استمع إليه باهتمام شديد وأزدادُ حبًا لعمله. أتذكر أنني ذهبتُ عدة مرات برفقته، لأرى كيف يزاول مهنته بكل احترافية وقد كنت أساعده أحيانًا، وكم أحببتُ ما يفعل، سواء عملية الغُسل أو الدفن، حتى أصبحت أريد أن أكون مثله!

لذا سألته ذات مرة:

- ماذا يجب أن أفعل لكي ألتحق بهذه المهنة العظيمة؟

فتبسم ضاحكًا ودنا مني ليقول:

- لا شيء سوى بعض الشجاعة! فهل أنت شجاع يا بني؟

- أجل، أنا شجاع يا عم "إسماعيل"، لا تقلق من هذه الناحية؛ قلبي من حديد!

- وماذا عن عائلتك؟

وهنا هبط مستوى حماسي إلى الصفر لأنني لم أفكر فيهم مطلقًا.

- لا أدري، ولكني سأتحدث إليهم.

- حسنًا يا بني، سأكون في انتظارك.

لذا قررتُ أن أُطلعهم على قراري بينما كنا مجتمعين حول مائدة الطعام.

- أريد أن أعمل مع عم "إسماعيل" حانوتي المنطقة.

وفجأة لم أعد أسمع صوت الملاعق ترتطم بالأطباق وانقطعت الأحاديث الجانبية بين والديّ.

فاستلم والدي دفة الحديث وقال مصعوقًا:

- ماذا قلت؟

- أرغب أن أعمل مع عم "إسماعيل".

فوقف والدي واتجه إليّ وأمرني أن أقف أمام نظرات والدتي التي لم أفهم هل كانت على وشك الصراخ أم البكاء أم كليهما.

- قف يا "خالد".

انصعت إليه على مضض.

- انظر إليّ.

رنوت ببصري ببطء شديد واستطعت رؤية الغضب ينفجر من عينيه ككتلة لهب على وشك التهامي وحرقي.

- هل كانت مجرد مزحة، أليس كذلك؟

انكمشتُ وعجزتُ عن الرد، ماذا يجب أن أقول؟ هل أصارحه أنني بالفعل رتبت كل شيء، وأنني أصبحت كبيرًا بما يكفي؟ -على الأقل من وجهة نظري- لأختار طريقي، وأنني سأُسخرّ كل حياتي لخدمة الموتى وأنني قضيتُ وقتي أتجول بين رفاتهم! أم يجب أن أتقهقر إلى الوراء، وأُطفئ شغفي لأنهم لا يرحبون بذلك. أي طريق يجب أن أختار؟ طال صمتي، ووجدتُ أن أبي عقد ذراعيه في انتظار إجابتي.

- لا، لم تكن مزحة.

تدخلت أمي بسرعة وأمسكت يد أبي قبل أن تمتد إليّ لتصفع وجهي وتقتل حلمي.

- هل ابني أصبح مجنونًا! سأتحدث إلى هذا المخبول الذي زرع في رأسك أوهامًا لا أعرف من أين جئت بها! من الواضح أنني لا أعرف الكثير من الأشياء عن ابني الوحيد، الذي بدا أنه يستمتع بصحبة رجل الموتى المجنون.

انصرف والدي واصطك الباب خلفه؛ وبقيت أنا ووالدتي نتبادل نظرات صامتة؛ تركتها واتجهتُ إلى غرفتي، أمسكتُ بكل كتبي الدراسية وألقيتها على الأرض بغيظ، لم أعد أرغب في التعلم، أريد أن أعمل مع عم "إسماعيل"؛ حاولت والدتي الدخول ولكنني أغلقت الباب بالمفتاح.

ترجَّتني قائلة:

- افتح الباب من فضـلك، دعنا نتناقش، لا يمكن أن تترك مسـتقبلك من أجل أن تعمل مع هذا الرجل الذي لا أعرف كيف تعرفت عليه. هل أنت جاد فيما تقول! تريد دفن مستقبلك وترك دراستك والعمل معه؟ مازلت صغيرًا يا بني!

وضـــعتُ كلتا يدي على أذنيّ لكي لا أســـمع ما تقول، لم تتوقف عن الكلام للحظة؛ جلسـتُ على الأرض بجانب السـرير أفكر فيما يجب أن أفعل، تبادر إلى ذهني أفكـار عدة ولكن يبقي التنفيذ صـــعبًا أو أنني لم أمتلك الشـــجاعة الكافية بعد، ومع ذلك لم أتوقف يومًا عن محاولة إقناعهم، ولم أعد أذهب إلى الجامعة، وأهملتُ دروسي.

اسـتخدم والدي كل أسـاليب التعذيب معي؛ كنت أتألم بشـدة وأبكي بصـمت، دون أن ينطفئ شـــغفي، لم أعـد أســـتطيع الخروج من البيـت لرؤيـة عم "إســـماعيل" أو زيارة أحبائي في العالم الآخر، إلا أنني ذات يوم تمكنتُ من الهرب من المنزل وذهبتُ إلى عم "إسـماعيل" مباشـرة ولكنه طلب مني بكل هدوء العودة إلى المنزل وإطاعة والديّ! وفهمتُ أنه خاض نقاشًـــا عنيفًا مع أبي. توقفت حياتي عن السير نحو الأمام لأنني أدركتُ أن عم "إسماعيل" قد تخلى عني.

وذات يوم جاءني خبر قلب حياتي رأسًـــا على عقب، دلفت أمي إلى غرفتي وقالت دون أن يرمش لها جفن:

- عم "إسماعيل" مات.

لا أدري هل حقًا ارتسمت على شفتيها ابتسامة ما، كما لو أنها تخلصت من حمل ثقيل يؤرقها، وأن نبرة صوتها تنم عن غبطة حاولت إخفائها بصعوبة!

أم أنني من واقع الصدمة أتوهم! احترتُ في تقدير الأمر؛ تجاوزتها واندفعتُ ناحية الباب، ركضتُ بأقصى سرعة إلى بيت عم "إسماعيل"، حيث تجمهر الكثير من الناس، والشارع يعج بالصراخ والصياح، كنت أعرف أنه ليس لديه أقارب، فلم أكن أعلم من هؤلاء ولم يكن لدي النية لأعرف حتى!

تسللتُ إلى غرفته، حيث كان يرقد هناك على سريره ساكن الجسد، مرتديًا عباءة ناصعة البياض كقلبه، دنوت منه وجلستُ إلى جانبه، سحابة من الدموع أعمت عينايّ عن رؤيته بوضوح. سمعتُ صوت زوجته خلفي؛ نظرتُ إليها، بدت متماسكة، ألقيتُ عليها التحية وكفكفتُ دموعي بسرعة.

فكسرت حاجز الصمت قائلة:

- كان يعتبرك كابنه.

لم أتفوه بكلمة وكنت أستمع إليها تتحدث عن موته المفاجئ، بينما كان يصلي العصر، والذي منعه من دفن أحدهم في الشارع المجاور، الآن لدينا اثنين من الموتى في انتظار من ينقلهما إلى مثواهما الأخير، وكان على أحدهم أن يفعلها، لكن مات من كان يتولى شؤونهم.

وضعت يدها على كتفي وأردفت:

- هيا بنا يا بني، فالجميع في انتظارنا.

لاحظتُ وميض غريب يترقرق في عينيها فلم أفهم ماذا تقصد تحديدًا،غير أنني قلتُ دون تفكير:

- أنا معكِ يا خالة.

الويكي ويكي

الوحدة ليست سيئة لتلك الدرجة، أليس كذلك؟ يا إلهي أنا كاذبة بارعة في إظهار أنني قد اعتدتُ هذا الشعور منذ سنوات طويلة، فأنا أعيش وحدي بعد وفاة والديّ في حادث مأساوي، ذلك الحادث قد دمرني بالكامل، شتَّت كياني ولم أعد أصلح لأنْ أُباشر الحياة مرة أخرى كنتُ في التاسعة من عمري حينها وتولت جدتي رعايتي بعد ذلك لكنها سرعان ما تركتني وحدي أتخبط كالتائهة بين أمواج الحياة المتلاطمة وتيارها المؤذي؛ لأجد نفسي بعدها بلا سند؛ فتحولت حياتي إلى صحراء قاحلة، وانتقلتُ من بيت لآخر لكي يتولى أحد أقاربي رعايتي وتجرَّعت شتى أنواع الحزن وكل ما لا يسُر الأنفس.

إلى أن قررتُ أن استقلّ عن الجميع وأعود إلي بيت والديّ لأبدأ سلسلة جديدة من الصراعات لا تقل عن سابقتها، لكن على الأقل أشعر بأرواحهم من حولي وهذا يكفيني.

لقد نسيتُ أن أعُرف عن نفسي اسمي "ليلى سلامة" في العشرينات من عمري، في كلية الإعلام جامعة القاهرة، ليس لدي عائلة ولا حتى أصدقاء، الجميع يخاف الاقتراب مني وينظرون إليّ بنظراتٍ لا أفهم فحواها أو ربما هذا ما أظنه عندما أنظر إلى تعبيرات وجوههم، فيخيل إليّ ذلك؛ أذهب إلى الجامعة كل يوم لكن لا شيء جديد، أذهب وأعود بمفردي ليس لديّ احتكاك بأي أحد. حتى أن الجيران في البناية لا أحد منهم يطرق باب بيتي ولا مرة

واحدة للسؤال عني أو حتى للسؤال عن أي شيء كما لو كنتُ أسكن في شقة مهجورة لا يجب الاقتراب منها؛ الجميع يتعامل معي كما لو كنتُ غير مرئية أو كما لو أنني جئت من كوكب آخر على سطح مركبة فضائية.

أحيانًا أشك في صحة معتقداتي، ربما أنا لستُ موجودة بالفعل وهذا يفسر الكثير من الأمور، لكن كيف؟ ما الدليل؟ أنا أستطيع رؤية نفسي في المرآة وكل شيء يبدو طبيعيًا بي لستُ دميمة حتى، أنا فتاة عادية ذات ملامح عادية أيضًا ليس لدي قرون ولا حوافر ولا أظافر حديدية ولا عيون فوق رأسي ولا أمشي على أربع ولا أزحف على بطني وليس لدي عيون خلف ظهري ورأسي ليس ضخمًا يلتف حوله موجات كهربائية ولون بشرتي ليس بالأخضر أو الرمادي أو الأزرق وأسناني ليست مدببة قادرة على التهام من حولي وأيضًا لستُ متعطشة للدماء ولا مستذئبة ولا حتى زومبي، أنا طبيعية مئة بالمئة، إذًا أين العلة؟

يا ربي هذا الأمر يصيبني بالجنون حتمًا دون الوصول إلى إجابة تشفي فضولي؛ لكن "كاندي" قطتي العزيزة هي صديقتي الوحيدة في هذا العالم البغيض، المليء بالأشخاص الغريبة، هي التي تؤنس وحدتي بالفعل، لكن فكرت أنه ما إذا كان الخطأ فيهم هم، ربما هم من هبطوا إلى كوكب الأرض عن طريق الخطأ وأنا البشرية الوحيدة بينهم صفقتُ لنفسي على هذا التحليل العبقري الذي اكتشفته في النهاية وبدأت أتأقلم معه لذلك تعاملت مع الناس كما لو كانوا فضائيين جاءوا في زيارة إلى كوكبنا الموقر.

وسيرحلون في أي وقت بعد أن يتركوا لي الكوكب وحدي أمرح، وألعب فيه لذا أنا على أتم استعداد لهذه اللحظة الذهبية على أحر من الجمر؛ لذا حينما

مثلًا أذهب لشـراء شـيئًا ما من السـوبر ماركت انظر إلى البائع وأبدأ بتخيله يتحول في أي لحظة إلى هيئته الحقيقية التي يخفيها داخل هذا الرداء البشـري وأتخيله رجلًا عملاقًا يصـل طوله إلى عنان السـماء بلونه الأخضـر الغريب وأطرافه الطويلة التي تتلوى مع كل حركة يقوم بها ويبدأ بالكلام بلغة غير مفهومة، أضحك داخل نفسي على هذا الخاطر.

أو حينما أركب المترو أبدأ بالتحديق في النسـاء من حولي، وأضـع هيئة لكل واحدة في مخيلتي وأسـتعد لعملية التحول المدهشـة في أي لحظة، فتلك القناة الأنيقة الواقفة أمامي والتي تضـع أطنان من مسـتحضـرات التجميل؛ هي في الحقيقة كائن فضـــائي قبيح جدًا يتخفى وراء هذه البهرجة وتلك السـيدة التي تبيع الجوارب بصوتها المُجلجل، ربما هي في العالم الآخر سيدة أعمال أيضًا لكن مهلًا الفضـــائيون لا يرتدون الجوارب! ولذلك أنا لن أتفاجأ حينما أجد إحداهن تسير على سقف المترو أو على الجدران لأن هذا أمر طبيعي بالنسبة لهن، أتمنى حينها ألا أصاب بنوبة هلع! وربما الفضائيون ليسوا بهذا السوء فالأفلام الأجنبية أفسدت هيئتهم للأسف.

تخيلوا معي اسمي سيكون بين صفحات الجرائد "ليلى سلامة البشرية الوحيدة الباقية على كوكب الأرض وسط كائنات الويكي ويكي،" أحببتُ الاسم الذي أطلقته عليهم، إنه رائع " ليلى سلامة والويكي ويكي" سيكون عنوانًا جذابًا. أتمنى أن أخُط صـــفحات التاريخ بيدي، ســـيكون اســـمي بجانب "نيل آرمسترونغ" رائد الفضاء الأمريكي ولن أقل أهمية عنه؛ في صغري تمنيتُ لو أصـــعد إلى القمر وها هم ســـكان القمر يعيشـــون معي، ربما أســـتطيع أن

أحجز تذكرة للصعود إلى هناك، ربما يعرفون وسيلة لذلك لن أيأس أبدًا حتى أحقق حلمي.

ولكن كل ذلك قد تلاشى في يوم وليلة. وتغير كل شيء فجأة بعد سلسلة من المعاناة من الهلاوس والخزعبلات. ففي إحدى الليالي استيقظتُ مذعورة على صوت موسيقي صاخبة يصم الآذان ينبعث من إحدى النوافذ في البناية التي أمامي. فتحتُ شباكي وأنا أشتعل غضبًا فقد جعلتني هذه الأصوات المزعجة استيقظ دون أن أكمل حلمي، فقد كنتُ على وشك مقابلة "جورج كلوني" وتوقيع عقد فيلم معه! لكن الجيران المحترمة حالت دون ذلك وأنا الآن في أوج غضبي وثورتي.

فأنا إنسانة عاشقة للهدوء والسكينة والشمس على وشك أن تشرق، لا يوجد احترام لخصوصية البشر! يا لكم من كائنات ويكي ويكي مزعجة للغاية؛ العيب على من أدخلكم هنا!

المهم أنني وجدت فتاة غبية ترقص كالمجنونة لكني لم أتبين ملامحها جيدًا، وأشك الآن أن العالم كله يشاهدها وهي ترقص لكن لا أحد قام بإيقافها، وأنا بسبب المسافة بيننا لم أستطع أن أصرخ لأجعلها تتوقف، وطبعًا مع وجود صوت الموسيقى فلن تسمعني ولا حتى في الأحلام.

لذلك أخرجتُ شهيق وزفير وقمت بتنظيم تنفسي وحاولتُ أن أعود إلى النوم مجددًا لكني فشلت فلم يغمض لي جفن. وقضيتُ الليلة أتقلب في فراشي. تمنيتُ ألا تفعل تلك المخبولة هذا الأمر مجددًا حتي لا أقتلها أو سأذهب إليها

ببســـاطة وأطلب منها أن تخرج من كوكبي، فقد تســـاهلتُ كثيرًا مع تلك الكائنات لذا هذا خطأي منذ البداية.

ومع أسـفي الشـديد الوضـع ازداد سـوءًا، وتلك الفتاة التي تحسـب نفسـها "شـــاكيرا" لم تتوقف عن إقامة حفلاتها الخاصـــة بعد أن تفتح النوافذ على مصراعيها، وتجعل الأغاني تنتشر في الأفاق لتصل إليّ بسرعة البرق؛ طفح كيلي، ولم أعد أستطيع التحمل ويجب وضع حد لها بعد أن تأكدت أنه لا أحد سيوقفها عند حدها لذا سأفعل أنا! أنا "ليلى سلامة" سأصنع المستحيل.

لذا ارتديتُ ملابســـي على عُجالة، وكانت الســـاعة الرابعة فجرًا، وبالتأكيد أصابتني فكرة الخروج في هذا الوقت الذي يعتبر وكر للصوص والمجرمين بالذعر، وتخيلتُ نفســي مقتولة على يد أحدهم؛ وبذلك سـينتهي حلم الشـهرة بالكشـــف عن "الويكي ويكي" ولكني أحتاج أن أنام! بســـبب تلك الطائشـــة أصابني الأرق وأصبحت أذهب إلى الجامعة كالزومبي.

خرجتُ من البناية وأنا ألتفت يمنة ويســـرة والشـــارع هادئ كهدوء المقابر، وركضـتُ بسـرعة صـوب بنايتها كان المصـعد معطلًا وحارس البناية نائم نومةَ أصحاب الكهف لذا صعدتُ على السلالم إلى الدور التاسع حتى شعرتُ بأنفاســـي تنقطع، فوقفتُ لأخذ شـــهيق وزفير، بعد أن جهزتُ بعض الكلمات التي سألقيها في وجهها حال رؤيتها.

وشـــعرتُ ببعض الخوف من فكرة أن تكون تلك الفتاة مجنونة بالفعل، وربما يحتدّ الشـجار بيننا فتكون نهايتي على يدها، ربما تخنقني أو تقوم بدفعي لأقع على السلالم، أو تحضر عصا، أو سكينًا، وتغرسها داخل أحشائي؛ لأن مثل

هذا التصـرف وأقصـد بذلك الرقص أمام جميع الجيران لا يمت بصـلة لفتاة عاقلة! وصـفعتُ نفسيًا داخليًا لأنني لم أحضر أي وسيلة للدفاع عن نفسي في حالة أي اعتداء وفكرتُ في العودة إلى حيث أتيت والصـباح رباح لكن وجب أن أوقف هذه المهزلة في التو واللحظة.

اسـتعدتُ رَباطة جأشـي، وتنفسـت الصـعداء، وعدلتُ هندامي ودقات قلبي ترتفع شيئًا فشيئًا وصـوت الأغاني يكاد يصـم آذاني، وطرقتُ الباب بعصـبية شـــديدة لكن لا رد، المرة الأولى، فالثانية، فالثالثة لكن لا رد؛ وأنا لم أتوقف عن طرق الباب بكلتا يديّ، وبقدمي؛ مع بعض السباب طبعًا وشعرتُ أن أحد الجيران سيخرج الآن ليشتمني؛ لكني كنتُ مستعدة لكل ذلك.

لم أتوقف عن طرْق الباب بكل قوتي، وفي النهاية سـمعتُ صـوت الموسـيقى يتوقف وصوت خطواتٍ يقترب من الباب، فاستعدَّيتُ للمواجهة، لكن كل ذلك تبخر في ثانية، كل الكلمات التي كانت على لساني تلاشت، وقفتُ مصدومة كما لو أن عقرب لدغني، أو سـقطت صـاعقة من السـماء لتهشـمني بالكامل، ارتفعت وتيرة دقات قلبي حتى شـــعرتُ بـه يخرج من موضـــعه من هول الصدمة ويهرب ليجعلني أواجه هذا الموقف وحدي؛ فهو لن يستطع مواجهته أما عن عقلي فتوقف عن العمل، وخلاياي العصـبية تعطلت، وشُـل جسـدي تمامًا، أحسستُ أن روحي تنسحب مني تدريجيًا، أخذ جسدي يرتعش بشكل غريب، وأنا لا أكاد أصدق ما أرى! الكلمات يصـعب معها وصـف ما حدث! لا أصدق... هذا ضرب من الجنون!

حدقتُ إلى القلادة حول رقبتها التي هي نسخة طبقة الأصل من خاصتي لكن هذا لا يقل خطورة عن القادم، فالفتاة التي انظر إليها هي أنا! كانت تشـــبهني

بدرجة كبيرة لا يوجد أي فرق بيننا، كما لو كنا توأمان، بدوت كما لو أنني انظر إلى المرآة بالفعل!

صرختُ بكل قوتي حتى شعرتُ بأحبالي الصوتية قد انقطعت وركضتُ بسرعة لأبتعد عنها دون أن أتفوه بأي كلمة واحتضنتُ قلادتي بين يدي وأنا أبكي بنشيجٍ مسموع؛ عدتُ إلى منزلي، وارتميتُ على سريري ودثَّرتُ نفسي لعلي أحصل على بعض الدفء لكن لا فائدة جسدي لا زال يرتعش. ظننتُ أنه مجرد كابوس! يا ليته كان كذلك بالفعل.

أغلقتُ النوافذ وكل شيء حتى الأبواب، وحاولتُ بصعوبة منع نفسي من التفكير فيما حدث منذ قليل. أمسكتُ القلادة بين يدي كانت تحمل صورة والديّ، ضممتها ولم أتوقف عن ذرف الدموع. لم العالم قاسي هكذا سلبني كل عائلتي وحولني إلى فتاة مجنونة؟! أي ذنب اقترفته أنا؟!

وفي اليوم التالي ودون تغيير الملابس التي كنتُ أرتديها بالأمس، وبشعري الأشعث الذي يفتقر إلى العناية والتمشيط، وحتى دون غسل وجهي قررتُ الذهاب مجددًا إلى حارس البناية هذه المرة لأن ما حدث لا يعقل، كيف لتلك الفتاة أن تشبهني إلى تلك الدرجة هذا مستحيل! أنا لا أؤمن بالمقولة التي فحواها أن لكل واحدًا منا أربعين شبيهًا.

ذهبتُ إلى حارس البناية، وسألته عن تلك الفتاة، وبوجه مذعور شاحب كما لو أنه تلقي خبر وفاة أحدهم قال:

- يا آنسة، لا أحد يسكن في تلك الشقة، إنها مغلقة منذ سنوات طويلة!

صرختُ في وجهه مرتاعة:

-مـاذا! هذا غير معقول! ما الذي تقوله... أنا... أنا متأكدة أن هناك فتاة تعيش في تلك الشقة لقد رأيتها بعيني. لقد رأيتها!

-هذا مســتحيل. فتلك الشــقة عاش فيها الأســتاذ "ســلامة" وزوجته وابنتهما "ليلى" رحمة الله عليهم!

إليك أكتب

رسالة إلى الحبيب الغائب:

أين أنت الآن يا زوجي المستقبلي؟ أنا أنتظرك منذ سنوات طويلة ولم تأتِ إلى الآن. أنا أبحث عنك دائمًا في وجوه المارة من حولي، ألتفت يمنة ويسرة علّي أجدك بين الحاضرين لكنك لم تظهر بعد! أصبحتُ مهووسة بهذا الأمر كثيرًا، لا أصدق أنني حينما أرى شابًا في الطريق؛ أختلس إليه النظر على أمل أن يكون أنت لكنك لست من بينهم! أفتش في كل مكان عنك، لكن محاولاتي باءت بالفشل .

أحببتُ أن أكتب إليك في عيد ميلادي الخامس والثلاثين، لا تتعجب نعم أنا اليوم سأتم عامي الخامس والثلاثين ولا أزال عزباء انتظر قدومك أو كما يقولون "عانس" فاتها قطار الزواج، لكن عن أي قطار يتحدثون! قطار الزواج! وهل إذا فاتنا قطار ما لا نستطيع أن نصعد على متن آخر؟ هل هذه نهاية العالم؟

بالطبع لا إذا فاتنا قطار ما، نستطيع أن نستقلّ آخر بسهولة، لكن لا؛ أنا الآن واقعة تحت ميكروسكوب المجتمع الذي لا يرحم، لكن لنكن صادقين يا عزيزي نحن، معشر النساء، نخضع لهذا الميكروسكوب منذ زمن بعيد حتى قبل أن نولد، تخيل مدى معاناتنا، ومدى الظلم الذي يكبّلنا بشكل دائم طوال فترة حياتنا!

تلك القيود التي لطالما تخنقنا فنشـــعر بالعجز عن التحرر منها للأســـف، فالحرية ليســـت لنا طالما نخضـــع لقوانين المجتمع، فتأتي إحداهن على أمل هدم تلك القيود والخروج عن القوانين الظالمة للمجتمع لكن ســـرعان ما تحطّمها إلى أشلاء، أو أن يظن بها الآخرون الظنون؛ المهم يا زوجي العزيز أنني أنتظرك بفارغ الصبر.

أتساءل لما تأخرت كل هذه المدة؟ هل ارتبطت بغيري؟ لكنك ستكون لي في النهاية، هل أنت من بلد آخر كما أتمنى، وربما إجراءات الســـفر قد عطلتك عن المجيء إلى هنا؟ أم أنك من النوع الثقيل الذي لا يرضـخ بسـهولة؟ ربما أنت معقد ولا تحب فكرة الزواج، ومعك كل الحق لكن ألم يحن الموعد لكي نلتقي؟ أليس الوقت مناسبًا الآن؟

أنا أفكر في كل شـيء يخصـك، أتسـاءل عن ما هي أكلتك المفضـلة؟ هل هي المكرونة بالبشـاميل؟ لكن ما هذا السـخف؟ من منا لا يحب تلك الأكلة القادرة على جلب السعادة لأي شخص حينما يتسرب إليه رائحتها النفاذة!

وعلى ذِكر الطعام أنا حقًا أشـعر بالجوع، ومن المفترض أن أذهب لأســاعد أمي في المطبخ، ولن تكف طبعًا عن فتح نفس الموضـــوع، لذا أنا نوعًا ما أحببتُ الهرب من هذا اللقاء اليومي الذي أصـــبح يخنقني، وأتســـلح حينها بالكلمات المناسبة لصد ضرباتها القوية، والآن دعني أكمل خطابي، لا أريد أن أبكي وأفسد ما أكتبه.

أفكر أيضًا في تفاصيل حياتك كلها بلا استثناء. كم أخ وأخت لديك؟ هل أنت سعيد في عملك وحياتك؟ هل كل شيء على ما يرام؟ أتمنى أن تكون الإجابة

بلى، فلا أحب أن يصيبك أي مكروه. أنا حقّا أرغب في رؤيتك سعيدًا دائمًا، أن تظل ابتسامتك مشرقة على ثغرك؛ لا يهمني إذا كنت وسيمًا أم لا لكن أطمح أن تكون شخصيتك جذابة وروحك جميلة وهذا يكفيني، لأن ليس هناك ما هو أفضل من جمال وجاذبية الروح الذي يطغى على جمال الشكل.

أتعلم لطالما تمنيتُ أن يكون لقاؤنا مميزًا، ربما في مكتبة أو في معرض الكتاب، لا أعلم لكن أنا مهووسة بالقراءة؛ لذا أتمنى أن يكون لقاؤنا هناك على الأقل أو أي شيء يتعلق بالكتب سأكون مبتهجة للغاية إذا حدث هذا الأمر؛ لذا أنا أتردد بشكل مستمر على المكتبات، لكن للأسف لم أجدك بعد بين دفات الكتب، لكني أراك بين أبطال روايتي وهذا يسعدني.

أتدري أنا أتحدث إليك في مخيلتي، أكتب عنك بين خبايا دفاتري ولا أحد يعلم عنك شيئًا، أحلم بك باستمرار وأتمنى في كل ليلة أن تظهر، لأنني أحببتك حتى قبل أن تأتي، هل لك أن تصدق ذلك؟ تسألني كيف أحببتك حتى قبل رؤيتك؟ في الحقيقة أنني لا أعلم؛ لكن لدي الكثير من الحب أكنه لك.

أنا أضع لك صورة الفارس النبيل في مخيلتي؛ ذلك الشاب المهذب الذي سيخطف قلبي من أول نظرة، ولن أنسى كونك مثقفًا، وعلاقتك قوية بالله وهذا طبعًا في المقام الأول، أراهن أيضًا أنك خفيف الظل، مرح تتناسب مع شخصيتي الطفولية التي لا تزال تنجذب لأفلام الكرتون، وكل ما يتعلق بها فأنا لا أحب الرجل حاد الطباع؛ لأنني عصبية بطبعي وبالتأكيد لن أتزوج رجلًا عصبيّا؛ لأن النتيجة لن تكون مرضية صدقني، نحن في غنى عن حرب عالمية ثالثة.

والآن أنا أتســـاءل ماذا تفعل في الوقت الحالي؟ هل أنت في العمل؟ أم برفقة أصــدقائك الذين ســيكونون مقربين لك للحد الذي يجعلني أغار منهم، وافتعل معك شجارٍ دائم بسببهم، هل والدتك امرأة حنونة؟ أم ستكون لي حماة قاسية؟ أعدك أنني ســأكون لطيفة معها، وســأغدق عليها بالهدايا؛ ليس لأجل عيونها فهي بالتأكيد امرأة شريرة كما هو متعارف عليه، تغار على ابنها من زوجته، تظن أنها جاءت فقط لتخطفه من بين أحضــانها؛ لكن لأجلك أنت ســأفعل أي شيء.

لكن من فضـــلك تعالى، ولا تتأخر أنا أحتاجك كثيرًا؛ لتنتشـــلني من هذا الضـياع؛ أنا أعاني بحق، كل شــيء من حولي يبعثرني من الداخل، ويزلزل كياني، ســئمت العيش بدونك، وســئمتُ كل شــيء، لما كل هذا التأخير لكي نلتقي؟! أخشى ألا نلتقي أبدًا.

أنا يا زوجي الحبيب أغضب، أثور، أبكي، أنتحب، أصرخ، وأكسر الأشياء من حولي لكني في كل تلك المواقف أحتاج إلى من يحتويني ولو بكلمة واحدة! لكني عادة لا أجد تلك اليد الحانية التي تربت على كتفي لتطمئنني أن كل شيء سيكون على ما يرام، وأن الحياة دون ابتسامتي ليس لها طعم.

أشعر بالخوف المستمر، الخوف من عدم إيجادك بعد كل هذا الصبر، ليس الأمر أنني لا أثق بالله حاشاه أن أفعل؛ لكن هذا الشعور يتسلل إلى خلاياي فيجعله يســتبد بي، إنه كالشــبح يطاردني في كل مكان، وفي كل وقت لكني أحاول ردعه، أحاول إلهاء نفســي عن التفكير المفرط الذي ســيهلكني حتمًا، أسقط أحيانًا بين مخالبه التي تنهشني من الداخل؛ لكني سأحافظ على ثبات موقفي الذي أتمنى ألا ينهار.

أنـا ككل فتاة تحلم أن تتزوج وأن ترتدي ذلك الفســـتان الأبيض الأنيق، وأن يكون لي عائلتي الخاصــة، أريد أن أنجب فتاة تشـبهني، وفتى يشـبهك أنت، ومع ذلك فـإني أرفض أن أحظى بكل هذا مع رجل لا أتقبله. لقد أخذت عهدًا على نفسـي أن أسلم قلبي لرجل يستحقه، أنا لا أنكث العهود فما بالك بعهد قد أخذته على نفسي.

صــدقني لا أســتطيع فعل غير ذلك؛ لا أريد أن أتزوج رجلًا يعاملني كما لو كنت قطعة من قطع الأثاث في بيته، أريده أن يشـاركني كل تفاصـيل حياته، وأن أشـاركه خاصتي حتى أتفه الأمور؛ هل الأمر صعب؟ أمي تخبرني أنني أعيش في عالم الخيال؛ لكني إذا لم أفعل ذلك ســأموت، نعم ســأموت إذا لم أحلم وأتمنى، فهذا الشـــعور بمثـابـة المتنفس الوحيد لي، المنفذ من كل هذا العبث، لولا الأحلام لهلكنا، إنها بمثابة الأكســجين الذي يحاول أن يتكيف مع ثاني أكسيد الحياة المزعج.

عائلتي ســئمت مني حقًا. جميع صــديقاتي تزوجن، وأنا الآن بمفردي، حتى أشــقائي تزوجوا أيضًــا؛ أذهب إلى العمل الذي يعد مهربي الوحيد، أنا أعمل مُدرِّسـة تاريخ في مدرسـة ثانوية للبنات، تخيل مدى بشـاعة الموقف، أنا أقوم بتعليم فتيات لا يرِدنَ أن يتعلمنَ من الأسـاس، لأن هناك أشياء أخرى تهمهن، ولكل قاعدة شـواذ، لكن دعني أطلعك على أمر يزعجني؛ الأجيال القادمة هم خطر حقيقي على الكوكب، وأريد أن أخبرك أنني أكره التدريس أصـلًا، لكن ما باليد حيلة؛ سيكون هذا أفضـل من الجلوس في البيت، وافتعال السجال مع عائلتي لرفض كل من يتقدم لخطبتي؛ أو هم من يرفضـونني بالفعل لأننا لسنا على وفاق ولا تتشابه ميولنا وهذا في النهاية نصيب! نصيب لا دخل لنا به.

لكن أمي لا تريد أن تقتنع، تظن أن المشكلة من عندي لكني أخبرها أن الله لم يأذن لي لكي أقابلك يا زوجي العزيز لكنها دائمًا تخبرني أنها تخشى أن تموت قبل أن تراني في بيتي بين أولادي، تتمنى لو تسمع كلمة جدتي؛ وكذلك أبي بالطبع، لكنه لا يلح باستمرار مثل أمي؛ لكن الأمر ليس بيدي أقسم.

سرعان ما أجلس مع أحد المتقدمين لخطبتي، وأجده غير مناسب لي بتًا، يختلف بشكل كبير عني، ولم أراك واحدًا منهم للأسف، فتَّشتُ في عيونهم عنك لكنني لم أجد تلك الخطفة التي ستربك كياني، وذلك البريق الذي سيجذبني؛ وأنا هنا لا أتحدث عن الحب من أول نظرة، الأمر أعمق من ذلك.

لذا أنا ما زلتُ أنتظرك، والجميع لا يكف عن الإلحاح عليّ كما لو كنت أمتلك مصباح علاء الدين أو خاتم سليمان لأحقق رغبتي ورغبتهم! لقد طفح الكيل!

آسفة للإطالة أيها الفارس لكن هذا بعض ما يكنّه صدري، ليس لدي غيرك أبث إليه ما يؤرقني؛ لقد أخذت عهدًا على نفسي ألا أتوقف عن الكتابة إليك، على أمل أن تأتي بسرعة، أتعلم! أنا أكره ذلك المجتمع الذي جعلني أكره نفسي بسبب تلك الأغلال التي تكبّلني بسببه؛ والذي دسّ السم لنا جميعًا، لكننا بدلًا من أن نتجرعه دفعة واحدة لنستريح من عناء الحياة؛ يجعلنا نرتشف منه رشفات ليجعلنا نموت ببطء، فيكون تعذيبنا أشد قسوة، ونحن عاجزون عن ردعه؛ لأن لا أحد يدافع عنّا معشر النساء، نحن من أعطينا تلك الفرصة للمجتمع، ليضعنا في قفصه لا نخرج منه أبدًا حتى مع ارتفاع صرخاتنا، لكنها للأسف لا تصل إليه.

يـا زوجي، أتمنى ألا يكون انتظـاري هبـاءً منثورًا، أتمني أن تســـتحق عنـاء الانتظار، وأن تكون شـخصًـا مميزًا بالفعل، ينتظرني كما أفعل أنا، ينظر إليّ كأنني أعظم انتصـاراته في الحياة، أن يمتص غضـبي، لا يضـجر مني أبدًا، أن نتعاهد على السير معًا للأبد لا يفرق بيننا غير شبح الموت الذي يلوح في الأفق، أن يشـــجعني ويـدعمني دائمًـا في كـل خطوة في حيـاتي، أن يكون ببســـاطة بطلي الوحيد الذي ســـيذيقني حلاوة الحياة، ويعيد إليّ البريق الذي فقدته.

أن يعيـد إليّ ابتســـامتي وحيـاتي المســـلوبـة مني، أن يحميني من مخـالـب المجتمع؛ أتدري، مديرة المدرسة التي أعمل بها لطيفة للغاية، وأخبرتني ذات مرة أن الفتيـات المهذبـات قليلات الحظ في الأمور المتعلقـة بـالزواج؛ لكنني كنتُ ضـــد هذه الفكرة بـالكامل، فشـــتّان بين هذا وذاك. فالله يؤخر الجميل ليجعله أجمل وهي مسـألة وقت فحسـب، كل واحدًا منا لديه رزقه وحظه في هذه الدنيا، والأرزاق بيد الله وأنا علي أشد اقتناع بهذا الأمر ولهذا أحاول سد تلك الثقوب داخل قلبي، والتي يتســـرب إليها اليأس في بعض الأحايين، فلا أريد لتلك الثقوب أن تتسع لتبتلعني في النهاية.

وأحب أن أختم رسالتي بنصيحة إلى النساء القويَّات:

-لا تتزوجي يـا صـــديقتي من أجل إرضـــاء المجتمع، وحتى لا يظنوا بـكِ الظنون ولسـان حالهم يقول "عانس" لا تتزوجي من أجل الخضـوع، لقوانين رجل لا يمت لكِ بأي صـــلة قرابة حتى من أجل أن يصـــفق لكِ المجتمع؛ وعـائلتـك التي تخشـــى أن يفوتـك قطـار الزواج، مع أنـه ليس هنـاك داعٍ

للاستعجال للحاق بعربة القطار، التي لن تصل بكِ حتى إلى خارج البلاد كما تتمنين!

بل إلى سجنٍ ستظلين فيه أبد الآبدين لأنكِ ببساطة حين تولجين إليه لن تستطيعي بعد ذلك إعلان فرمان العصيان على زوجك والتمرد على ديكتاتوريته، إذا صودف أنه شخص غير مناسب لكِ ولطموحاتك.

إذًا النصيحة الأولى والأخيرة؛ تزوجي حين تشعرين أنكِ مستعدة للخوض داخل هذا المارثون، حينما تتشبعين بشكل كامل من التعليم ومهاراتٍ أخرى، حينما تشعرين أنتِ، ولا أحد غيرك، أن الوقت قد حان؛ حينما تتخذين هذا القرار مِن تلقاء نفسك، وليس من تلقاء عائلتك؛ عندما تكونين قد وضعتِ قوانينك الخاصة التي تريدين العيش وفقها، عندما تنتهين من رسم بعض أحلامك وهذا على أمل أن يكون زوجك إلى جانبك لتحقيق المزيد منها، حينها يمكن أن تتخذي هذا القرار بحرص وحذر؛ فأنتِ من سيختار طريقه.

أغلقتُ القلم ونظرت إلى الورقة بانتصار، سعيدة أنني أخرجت التراكمات التي بداخلي؛ لكن أخرجني من قوقعتي الخاصة صوت أمي الذي جعلني انتفضت:

-"نهال"!

وبحركة لا إرادية كومت الورقة بين يدي سريعًا، وفتحت النافذة التي كانت على مقربة مني، وألقيتها في الشارع، ففتحت والدتي باب غرفتي لتنظر إليّ بشك حال دخولها؛ كما لو كنتُ قد أقدمت على فعل جريمة ما, لتقول بقلق:

- لم وجهك شاحب هكذا يا "نهال"؟

ابتلعت ريقي بصعوبة لأقول بهدوء:

-لا شيء يا أمي. ماذا كنتِ تريدين؟

ضيقت أمي عيناها وصمتت لثواني تبحث عن الكلمات المناسبة لكنها أردفت في النهاية:

-الغداء جاهز وأنتِ في غرفتك منذ فترة طويلة؛ وقلقتُ عليك يا ابنتي.

-لا داعي للقلق. سآتي حالًا.

حدقت إليّ بشـــفقة، وهزت رأســـها، وغادرت الغرفة؛ وأنا أعلم فيما تفكر بـالطبع، لكني لم أهتم كل مـا شـــغل عقلي هو تلك الورقـة التي ألقيتهـا من النافذة؛ ولا أدري لماذا فعلتُ ذلك؟ لكني خشـــيت أن تقرأ أمي ما كتبت لأنها أحيانًا تفتش في أغراضي، وإذا رأت مثل هذه الورقة ستشك في سلامة عقلي بكل تأكيد!

.******

كنتُ أسـير في الطريق وهموم الدنيا فوق عاتقي لكن كان هذا قبل أن تسـقط فوق رأسـي ورقة مكومة. رنوت بعينيّ نحو الهدف لكن صـاحب الورقة كان قد أغلق الشـباك قبل أن أطلق سـبة بسـبب عدم نظافة الناس الذين لا يكفون عن إلقاء القمـامـة فيتحول الشـــارع إلى مقلب للقمـامة وليس مكانًا يصـــلح للعيش.

لكن فجأة انتابني الفضول ناحية هذه الورقة لفتحها وبالفعل فعلت ذلك؛ وربما فكرتُ أنهـا من الممكن أن تكون جوابًـا من إحـدى المعجبـات لـذا لم أتمـالـك

نفسي، أضحكتني الفكرة كثيرًا بقدر ما أغضبتني طريقة إلقاءها، لكن هذا بالفعل هراء فقد انتهى زمن الرسائل والخطابات، تلك الفترة الجميلة والمميزة والتي كانت الورقة حينها تحمل فيضًا من المشاعر من الطرف المُرسِل إلى المتلقي.

فتحتُ الورقة وشعرتُ بشعورٍ غريب نحو تلك الكلمات المُسطرة بحروف كئيبة، أحسستُ بالمرارة التي تشعر بها تلك الفتاة من خلال كلماتها المبعثرة، آلمتني آلامها وأدركتُ أن الحياة قاسية للغاية وأن تلك الفتاة لديها حلم بسيط لكن المجتمع لا يريد أن يدعها وشأنها، فلا يرتاح إلا إذا قص لها جناحيها لكي تكف عن التحليق بأحلامها إلى السماء.

مشاعر مختلطة انتابتني خلال عباراتها، وجذبتني وتمنيت لو ألتقي بها حقًا، فانتظرتُ أمام العمارة لعلي أراها من جديد أو لعلها تريد استعادة تلك الورقة على الأقل فهي بالتأكيد بمثابة كنز ثمين بالنسبة لها. لا أدري لكني في النهاية قررتُ الانتظار لن أخسر شيئًا وفي تلك الأثناء كنتُ أعيد قراءة كلماتها.

وبعد حوالي ربع ساعة كان لي ما أردت وجدت إحدى النوافذ تُفتح ورأيتُ فتاة تطل منها تنظر إلى أسفل تفتش بعينيها كأنها تبحث عن شيء ما وخمنتُ أنها هي الفتاة المنشودة لكني لستُ متأكدًا. ظللتُ أحدق إليها وشعرت برجفة في قلبي، وأنا استحضر ما كتبت، فكرتُ في أن أسألها إذا كانت تبحث عن شيء ما لكني خشيت أن تغضب؛ وفي النهاية خرج صوتي هادئًا لأقول بعد أن تجرعتُ بعضًا من الشجاعة:

- هل تبحثين عن شيء ما؟

صـمتت لوهلة تراجع نفسـها هل عليها أن ترد أم لا، خوفًا من أن أكون شـابًا غير مهذب أو "سرسجي" يريد مغازلتها ومع ذلك قالت بتردد:

- أبحث عن ورقة ألقيتها عن طريق الخطأ.

فابتسـمتُ ابتسـامة واسـعة بعد أن تأكدت أنها هي، فأجبتُ بانتصـار كمن وجد كنزًا ثمينًا بالفعل:

- أنها في حوزتي.

سكتت مرة أخري وأنا أرى ابتسامتها تتسع لأنها وجدت ضالتها فاستطردت بخجل:

- هل بمكن أن أستعيدها؟

- بالتأكيد؛ لكن كيف سأفعل؟

حل الصـــمت مرة ثانية، وكانت تنظر إلى الداخل بين الفينة والأخرى، وإلى النوافذ من أمامها خشية أن يراها أحد؛ فألسنة الناس لا ترحم، وهي بدت فتاة مهذبة، كل ما أرادته أن تســكب بعض ما في قلبها على الورق لأنها لم تجد من تبث إليـه شـــكواها، فاختارت القلم ليكون لها صـــديقًا يخطُ على ورقة أحلامها متمنية ألا تمحيه ممحاة الواقع.

فأخبرتُها أنني سأعطي الورقة إلى حارس البناية؛ ووافقت على الحل وأغلقت النـافذة وهي تطير فرحًـا. لكن قلبي هو من فُتحت نـافذتـه مع رحيلهـا، ليطل على عـالم لم أكن متـأكـدًا من وجوده، ومنـذ ذلـك الحين وأنـا لم أتوقف عن التفكير، بهـا حتى أنني بـدأت أراهـا في عدة أمـاكن أتردد إليهـا ولا أعلم هل

هي حقًا؟ أم أنني أصبحتُ أتوهم وأرى أشياءً لا وجود لها؟ وأقوم باستحضار كلماتها المبعثرة والتي تحكي واقعًا أليمًا. لذا وبعد بضـــعة أيام قررتُ التحقق من مكنون قلبي، فذهبتُ صـــوب بيتها فورًا وأنا عاقد العزم على أن أترك مشــاعري تحلق في الآفاق دون قيود. ربما هي مخاطرة أن أذهب هكذا دون ميعاد لكن لا يهم ما الحياة إلا مخاطر وتجارب.

طرقتُ بابها لتفتحه هي، لاحظتُ ارتباكها الذي لم يقل عن ارتباكي أبدًا؛ حل الصمت بيننا ضيف ثقيل.

فتساءلت مذهولة:

-لقد أعدت لي ورقتي وأنا شاكرة لك؛ ما المشكلة الآن؟ ماذا تريد؟

-أعدتُ لكِ ورقتك، لكنكِ لم تُعيدي إليّ قلبي.

المسوخ

ماذا لو أنها ليســـت أمي؟ ماذا لو أنه ليس أبي؟ وماذا عن أســـامة؟ هل هو أخي؟ ماذا لو أنهم في النهاية ليسوا بعائلتي؟

مـاذا لو أنـه تم بـالفعل اختطـاف عائلتي الحقيقية أو تم اســـتبدالهم؟ وأين هي عـائلتي الآن؟ هل يبحثون عني؟ هل يشـــتاقون إليّ؟ ومن هؤلاء المحتالون الذين أعيش برفقتهم؟

استيقظتُ ذات يوم مع هذا الخاطر المفزع الذي قلب حياتي رأسًا على عقب؛ كنـتُ في العـاشـــرة من عمري حينها، ومنذ تلك اللحظة، وأنا أتجنب عائلتي تمامًا، والتي أحســـســـتُ أنها تتجنبني من الأســـاس منذ فترة وتغيرت الأمور للأسوأ حين ذاك.

بدأتُ أشــعر بالخطر يحيط بي من كل جانب, أشــعر بنظراتهم المخيفة تلتف حولي فتخنقني بقوة، أشعر بهم يتغامزون ويهمزون ويلمزون، ربما يضعون خطـة الآن للتخلص مني أو أذيتي! كـان يجـب أن احترس، احترس كثيرًا، وحرى بي أن أضع خطة محكمة لحماية نفسي. هذه ليست عائلتي التي أحبها وتحبني! هؤلاء محتالون لا أعلم من أين جاءوا!

كانت أمي أحيانًا تصـرخ في وجهي بشـكلٍ مخيف، كنت أشـعر أن أسـنانها ســـتتحول إلى أنيـابٍ على وشـــك التهـامي؛ وعينـاها كمـا لو أنهما جمرتان

متأججتان على وشـك حرقي على الفور، كنت انكمش على نفســي أو أهرب إلى غرفتي وأغلق الباب. ذات يوم غضبت مني لأنني كسرت طبقها المفضل وكانت حينها تحمل سكينًا لتقشير البطاطس، وبينما كانت تصيح في وجهي، كان كل همي هو السكين الذي في يدها، والذي أشعر به سيمزق جسدي في أي لحظة؛ بينما تلوح به كفارس مغوار على وشــك الانقضــاض على العدو حينما تسنح الفرصة، فهرعتُ إلى الباب بسرعة وركضتُ إلى الخارج.

فصرختُ عاليًا وكان أبي حينها في المنزل فركض خلفي، شعرت أنه وحش على وشك الفتك بي، وهو يصرخ بأن أعود في الحال، فلم أتوقف، استمررتُ في الركض هنا وهناك، وكنت أســرع منه. ولما تعبتُ من الركض، وتأكدتُ أنـه ليس خلفي، وقفتُ أســترد أنفاســي المنقطعة، وفكرتُ في الذهاب إلى صــديقي رمزي. فمررتُ ببيته، طرقتُ الباب بتردد، ففتحه وقال بقلق حينما لاحظ اضطرابي:

- ما الأمر يا أمير؟

- أنا خائف.

كان هذا كل ما استطعت قوله؛ أدخلني إلى شقته، سردتُ على مسامعه كل ما حدث، وحينما انتهيتُ وجدته يقهقه عاليًا مما أثار غضبي، وسخطي، وأردت أن أصفعه على وجهه في تلك اللحظة.

فقلت بعصبية:

- ما الذي يضحكك يا رمزي؟

فأجاب بينما يكتم ضحكاته بصعوبة:

- ما تقوله يا صديقي هو ضرب من الجنون! من ذا الذي سيخطف عائلتك؟ ما تقوله شـــيء لا يصـــدق. الأمر وما فيه أن ما حدث لك من شـــجار مع عائلتك، هو أمر طبيعي يمكن أن يحدث لأي شخص وهذا لا يعني بالضرورة أنه قد تم استبدال عائلتك أو أنهم لا يحبونك.

- ولكنني لا أكذب!

فضحك مرة أخري قبل أن يقول هازئًا:

- أعد على مسامعي ما قلت؟ آه، تذكرت، لقد أخبرتني أنك شعرت أن والدتك ستقتلك بالسكين، وأن أسامة حاول خنقك بينما كنت نائمًا ذات مرة؟ بالإضافة إلى أمور أخرى لا أرى لها أي أساس من الصحة.

- أجل هذا ما حدث! وكذلك أبي حاول ذات مرة أن يدعسني بالسيارة!

لم يتمالك رمزي نفســه من الضــحك من جديد حتى وقع على الأرض بينما يقهقه مما أثار حفيظتي فاحتججتُ قائلًا بحدة:

-بدأت أشك أنك شخصيًا تم استبدالك يا رمزي! لأن صديقي القديم لم يكن ليسخر مني بهذا الشكل.

فنهض رمزي حينما لاحظ مدى غضــبي، وحاول أن يدنو مني، ولكنني وضعت يدي أمامي أحذره من الاقتراب مني؛ بينما أهدده قائلًا بعنف:

- إياك والاقتراب مني أيها المسخ المحتال؛ سأبحث عن عائلتي وعن صديقي القديم؛ أنتم جميعًا محتالون تحاولون إيذائي، أري ذلك في أعينكم أيها المسوخ!

- أمير من فضلك لا تضخم الموضوع! أنا صديقك.

- إياك أن تتفوه بهذه الكلمة أيها المسخ! رمزي صديقي العزيز لا يقول مثل هذا الكلام، وأنا سأجده أقسم لك!

ثم خرجتُ من منزله لأجد المسخ الكبير، المدعو أبي، أمامي والشرار يتطاير من عينيه، فركضتُ بسرعة وركض خلفي بالسيارة، ونجح في اعتراض طريقي هذه المرة، فخرج وأمسك بي بقوة أمام صرخاتي التي جذبت الناس في الشارع، وكان هذا المسخ يحاول تبرير الموقف، أنني ابنه، وقد هربت من البيت وجاء لإعادتي.

فصحتُ باكيًا:

- هذا ليس أبي الحقيقي! هذا الشخص يحاول انتحال شخصية أبي؛ أنقذوني، أنقذوني أرجوكم، إنه يحاول قتلي.. النجدة. النجدة.

فلبّي الناس النداء وتدخلوا لإنقاذي، وتشاجر معهم المدعو أبي دفاعًا عن نفسه؛ ومتوعدًا بمعاقبتي حينما نعود إلى البيت بسبب ما فعلته وازدادت الأمور سوءًا حتى تمكنت وسط هذه الجلبة من الهرب مرة أخرى، جريت بأقصى سرعة نحو المجهول بينما أبكي.

وللأسف لم يستمر ركضي طويلًا، لأنني وجدت هذا الرجل الذي يحاول قتلي يشدني بعنف داخل السيارة، ولم يأبه لصراخي؛ ولا أدري كيف استطاع الإفلات من الشجار المحتدم! المهم أنني عرفت حينها أنني في مأزق كبير، وسأموت لا محالة؛ وفكرت لمن سأعطي ألعابي بعد موتي؟ ومن سيبحث عن عائلتي إذا لم أفعل؟ فكرتُ في الذهاب إلى الشرطة بسرعة ولكن بدا هذا

مستحيلًا لأن أبواب السيارة والزجاج تم إغلاقهم بإحكام، لذا أنا محاصر تمامًا. وحتى لو ذهبت إلى الشرطة ربما لا يصدقني أحد كما فعل المسخ رمزي! ولكنه فعل ذلك لأنه واحدًا منهم، وربما بينهم اتفاق للقضاء عليّ! وماذا لو أن الشرطة قد تم استبدالهم أيضًا، سأكون حينها في ورطة، لذا كان يجب أن أتحلى ببعض الشجاعة وأحاول التصرف.

يا إلهي أنقذني!

وجدت المسخ الكبير يتحدث إلى تلك السيدة التي كانت علي وشك قتلي اليوم بالسكين، عندما كسرت مجرد طبق! طبق لا قيمة له، كانت على وشك قتلي بسببه وهذه لم تكن تصرفات أمي أبدًا. أمي كانت امرأة وديعة لا تفعل مثل هذه الأشياء. ولم تكن لتفكر في إيذائي أبدًا.

فأردف المسخ البدين بينما يتحدث في الهاتف:

-أمسكتُ بالشيطان أخيرًا؛ نعم.. نعم، لقد كانت مشاجرة عنيفة، سوف أعاقبه بقسوة هذا الشيطان! لقد تم ضربي بسببه ونجوت بأعجوبة.

كانت هذه هي الكلمات التي لفظ بها المسخ البدين، بينما ينظر إليّ نظرات حارقة، فتكورت مكاني بينما أبكي بصمت، وتساءلت لماذا قال عني شيطان! هل فعلت ما هو خطأ؟ كنت أحاول النجاة لا أكثر! سأنتقم منكم أيها المسوخ وسأنقذ عائلتي.

عدنا إلى البيت ولا داعي لسرد ما حدث لي ذلك اليوم، تلقيتُ جميع أنواع الضرب والسباب، بينما أجد نظرات الشماتة بين أعين زوجة المسخ، وابنه المسخ الصغير الذي كان يرتدي منامتي! هذا الحقير كان يرتدي منامتي!

الويل كل الويل لهؤلاء المسوخ! لم أكن أفعل شيء سوى محاولة الدفاع عن نفسي وكنت أعلم أنه سيتوقف في لحظة ما، ولكن هذه اللحظة قد طالت، وشعرتُ بالكثير من الألم بسبب قوة هذا المسخ الكبير الشرير.

قضيت تلك الليلة وأنا أتوجع، ولم أكن أستطع النوم بسبب الكدمات اللعينة؛ فدنا مني المسخ الصغير الذي يرتدي منامتي وغمغم باستياء:

-هل فقدت عقلك يا أمير؟ ما الذي يحدث لك؟ لماذا هربت من المنزل بهذا الشكل؟

فأجبتُ بضيق، وأنا أتحسس جسدي الذي أصبح بلا معالم بسبب صفعات الحزام:

-لأتخلص منكم أيها المسوخ!

- عن أي مسوخ تتحدث؟

- أتحدث عنكم أيها المسخ الصغير.

- يبدو أنك فقدت عقلك فعلًا؛ تصبح على خير.

لم أنم ليلتها، كنت أفكر وأفكر فيما يمكن أن أفعل؛ الانتقام لمع داخل عيناي، والحقد يغلي داخلي، الانتقام ولا شيء سواه؛ خرجتُ من الغرفة على أطراف أصابعي لأجد المحتالين جالسين على الأريكة بينما يتحدثان، فتحدث المسخ الكبير قائلًا لزوجته:

-هذا الولد يجب أن يتأدب؛ كدتُ أقع في مشكلة كبيرة بسببه.

-لا أدري ماذا حدث له، وبالتأكيد سيتم معاقبته حتى يعود إلى رشده، لا تحزن؛ لقد أخبرني أسامة أنه كان على وشك خنقه! أتصدق هذا! كان يريد قتل أخيه.

- يا إلهي، هذا الشيطان أصبح عدوانيًا للغاية؛ سأتولى أمره.

- وأنا أيضًا سأفعل.

كنت مختبئًا وأنا أسمعهما، أردت أن أصرخ قائلًا أنه هو من حاول خنقي وليس أنا! وأنهم محتالون ويجب أن يخرجوا من منزلي في الحال! ولكن سلطتي كانت ضعيفة جدًا وقوتي لا تستطيع محاربتهم والتخلص منهم؛ تمنيتُ حينها أن يكون هناك عقار أو ما شابه أستطيع تناوله لكي أصير كبيرًا كفاية لمواجهتهم، هذه كانت الطريقة الوحيدة.

وأدركتُ تمام الإدراك أنني في مأزق بعد كل ما حدث، ولا أدري كيف سأخرج منه؛ ولم تتوقف محاولاتي اليائسة للهرب منهم، ولم يتوقفوا هم عن تجنبي، وضربي، وتعذيبي بأبشع الطرق؛ ومرت السنوات، والحال كما هو بل يزداد سوءًا وجاءت لحظة الخلاص وانتهى الأمر، ولم أعثر على عائلتي وكان يجب أن أتصرف حيال هذا الموضوع؛ لأنجو بنفسي ونجوت لأنني صرت كبيرًا أخيرًا.

كفكفتُ دموعي بينما استعيد تلك الذكريات المؤلمة، وأنا أقف أمام ثلاثة قبور؛ كانت هي قبور المسوخ الذين سلبوني عائلتي، وضعتُ الأزهار على قبورهم ولا أدري ما السبب لجلبها بل زيارتهم من الأساس، ولكنني فكرتُ أن عائلتي ربما تكون هنا في مكان ما، ثم حدقتُ إليهم طويلًا ونظرة ساخرة

اعتلت محياي ثم مضـــيتُ في طريقي وأنا إلى الآن لا أدري أين هي عائلتي الحقيقية؟ ولكنني لن أتوقف عن البحث.

لن أتوقف أبدًا!

وسأجدهم يومًا ما.

المرأة الثعبانية

اعتدتُ على رؤيتها تقف في الشرفة المطلة على البناية التي أمامي، الجيران يرون أنها سيدة ملعونة بكل ما تحمله معاني الكلمة، غريبة الأطوار، تراقب كل الأشخاص من حولها؛ أحيانًا أشك أنها تنام في الشرفة، من كثرة مكوثها هناك.

ألاحظ علامات التقزز الدائم على وجهها عندما تلمح أيّ من الجيران. ظننتُ أن الأمر يخصنا فقط ولكن أكتشفت أنها حتى في الشارع تنظر إلى الجميع بنفس الطريقة، وخصوصًا الشباب والفتيات، ترمقهم بحسرة وغيظ، لا أدري ماهية هذه النظرة الشرسة التي لا أنفلت منها، كما لو أنها تبكي وتتحسر على شبابها المسلوب. البعض يقول أنها سيدة مشؤومة ماتت عائلتها، وأولادها أو هجروها، والبعض الآخر يقول أنها تربي عناكب وثعابين وكائنات أخرى غريبة في بيتها، وآخرون يقولون أنها مشعوذة أو تسخر الجن لخدمتها.

الأمر بدا لي مريبًا، ولكن الناس تحب الثرثرة والنميمة، بطبيعة الحال؛ راودتني فكرة أن أذهب لأطرق بابها وأنصرف؛ الفضول يقودني إلى معرفة ما تخبئه فعلًا؛ أحيانًا أفكر في كسب صداقتها، لأن الناس المريبة دائمًا تجذبني.

لم أكن أشـــعر بـالخوف أو النفور منها بل بالعكس، أشـــعر بالانجذاب إليها والشـفقة على حالها. لذا فكرتُ جيدًا في زيارتها، تذكرتُ أول مرة قمتُ فيها بذلك عندما كنت أصعد السلالم المؤدية إلى شقتها شعرتُ ببعض الأصوات تهمس حولي، كما لو أنها تحاول ردعي عن فعل ذلك، فلم يثنيني ذلك عن اكتشـــاف عالمها الغريب، تقطن في الدور الســـادس ولا يوجد مصـــعد، فأحسستُ بانقطاع أنفاسي تدريجيًا؛ وقفتُ أتنفس الصعداء في الدور الخامس، الذي بدا مقفرًا، لا أحد يسـكن فيه، وهذا شـأن معظم شـقق البناية خالية من الحياة. موقع ممتاز بالنســبة لســيدة غريبة، كما يقول عنها الجميع؛ وفي اللحظة الأخيرة أثناء صعودي تراجعتُ بسرعة عندما أحسستُ بمن يسحبني للوراء لأرحل.

وذات يوم حدث شيء غريب جدًا؛ كنا في عيد الأضحى وقفنا نشاهد الذبيح للجزارة التي تقطن أســفل العمارة، كان هناك رجل ضـــخم الجثة يمســك بالسكاكين وأمامه الأضحية المسكينة تحاول الهرب ولما تمكن منها حدث ما جعلنا على وشـك الإغماء من هول الصـدمة حينما أمسـك الرجل بالسـكين ليقطع رأس العِجل فقطع رأسه! تخيل أن سحبة السكين جزت عنقه هو بدلًا من عنق الأضـــحية ولا نعرف كيف حدث ذلك حتى، ارتفعت الصـــيحات والصرخات هنا وهناك، هرعوا إليه مفزوعين ولكنه كان قد فارق الحياة.
التقت عيناي بخاصـتها كنت أراها تبتسـم ابتسـامة سـاخرة بينما الناس في الشـارع يصـرخون؛ لا أدري لماذا في تلك اللحظة بالذات قفز إلى عقلي، أن هذا الرجل قد تشـاجر معها من قبل وكاد أن يضـربها بسـبب شـجار محتدم حدث بينهما بسـبب الاختلاف على أسـعار اللحم التي يبيعها وأنه يسـرق في

الميزان ولا يعطي النـاس حقهـا، أتـذكر لأنني كنـت في طريقي إلى بيتي حينها، لأرى كيف أخبرته بغضـب شـديد بجملة جعلته يضـحك: "سـوف تندم صدقني"

. هل يمكن أن تكون صـــدفة؟ لا يمكن أن تكون الســـبب؟ أعني ليس لتلك الدرجة! هل شجار كهذا يمكن أن يؤدي إلى كارثة؟

وماذا عن جارتنا ســـعاد التي ضـــربها زوجها في الشـــارع حد أنها كانت ســـتموت بين يديـه وتجمع الجيران لنجدتها، ولكنه طلقها في النهاية وأتذكر جيدًا أنها تشاجرت أيضًا معها لأن سعاد تترك أكياس القمامة دائمًا في مدخل العمارة، بما أنهما يسـكنان معًا، مما يجعل هذه الأكياس وجبة شـهية للقطط وبدا أن هذا الأمر أزعج تلك المرأة كثيرًا، لذا تشـاجرتا بعنف فأقسـمت سـعاد أنهـا لن تكف عن وضـــع الأكيـاس في المـدخل، مما دفعها أن تقول لها نفس الجملة "سـوف تندمين يا سـعاد" هل هذه صـدفة أخرى؟ لماذا أشـعر الآن أن لها يد في كل هذا؟ يد تعبث بلا رحمة.

ونعم هنـاك شـــيء آخر قد وقع منذ فترة له علاقة بجارتنا ســـميرة، فاتنة المنطقة، التي خســـرت وجهها الجميل عندما نشـــب حريق في منزلها فجأة، تـذكرتُ أنهـا كـانـت تســـخر دائمًا من تلك المرأة وتنعتها بالمجنونة، ما الذي يحدث بالضبط؟

جرت العديد من الأحداث الشـبيهة على فترات، ودائمًا أجد هذه السـيدة تقف في شـرفتها وتبتسـم بتشـفي، عندما أقوم بجمع الخيوط أجدها دائمًا هنـاك، إنها لغز لا حل له!

وماذا عن حازم المسكين الذي اشترى سيارة جديدة، كاد أن يصدمها بها ذات يوم، لا أعلم هل كان متعمدًا أم لا؟ سوى أنها رمقته بنظرة واحدة فقط، نظرة منها جعلت السيارة تتحول إلى خردة في اليوم التالي نتيجة حادث على الطريق.

أهي صدفة أخرى؟

لا تخرج من شقتها كثيرًا وإذا خرجت تحل الكوارث بعدها، هي هناك تقف في شرفتها الغريبة تأكل الجيران بعينيها.

أتذكر أنني حلمتُ بها ذات يوم تناديني، وعندما اقتربتُ منها حاولت خنقني وقد استيقظتُ مفزوعة، حتى أنني رأيتها في غرفتي تحدق إليّ؛ فأصابني الرعب وأخذتُ أصرخ حتى جاءت والدتي وضمتني إلى صدرها، ومن يومها حاولتُ أن أخرجها من رأسي، وفي كل مرة أحاول ذلك أجدها أمامي تحدق إليّ كما لو أنه قد حان دوري، فبدأتُ أخشاها وأتحاشى النظر إليها.

حتى أنني لم أعد أخرج إلى الشرفة بسببها، ومع ذلك كانت تطاردني في كوابيسي وأراها في غرفتي، لذا لم أعد أستطيع النوم بشكل جيد وطلبتُ من أمي أن تنام برفقتي فاختفى شبحها ولكن ليس لوقت طويل.

بدأت أمي تقلق على حالتي بسبب شحوب وجهي، والهالات السوداء التي تعسكر أسفل عيناي، وحدثتها عن الموضوع.

فقالت لي:

- لا يمكن أن تكون السبب فيما حدث للجيران يا ولاء.

- هل يمكن أن تكون كل هذه الأمور صدفة؟

- لن يصـــيبنا إلا ما كتب الله لنا يا حبيبتي وحاولي عدم التركيز في تلك الأحداث.

- سأحاول.

ضمتني إلى صدرها وتركتني فريسة للأفكار بشتى أنواعها. هناك طريقة واحدة للتأكد إن كان لها يد فيما يحدث أم لا! أن أذهب إليها دون علم أمي، مع أنني خشيت ألا أعود إليها، فهي كل ما تبقى لي من عائلتي؛ لذا استيقظت صـباحًا ولم أجد أمي في البيت، فخمنت أنها في السـوق، مع أنها لم تخرج دون أن تخبرني أبدًا، وعندما هاتفتها لم تجبني وتذكرت أنها لا تحمل هاتفها عندما تخرج.

ومع ذلك تشجعتُ وذهبتُ نحو العمارة، حيث تسكن سيدة الأسرار، الهدوء يخيم المكان بطريقة تربكك، لا أعلم من أين جاءتني هذه الشـجاعة لأصـعد إليها، حاولتُ كتم أنفاس الخوف لأكمل طريقي؛ وصـلتُ إلى شـقتها؛ الظلام دامس وبشـدة، شـغلتُ كشـاف هاتفي، لأصـطدم بقطة سـوداء كدتُ أموت بسببها.

تحركتُ ببطء نحو المجهول وقلبي يكاد يخرج من بين أضـلاعي وأنفاسـي أصبحت أعلى صوتًا من صوت أقدامي المرتعشة. لاحظتُ على الضوء الخافت، رسـومات غريبة على الجدران من حولي، وقفتُ أحدق إليها، بدت مرعبة، اقتربتُ ببطء، هناك أكثر من رسمة شدتني، هناك رسمة لفتاة شابة حولها عائلتها، وعلى الجانب الآخر تقلص عدد الأفراد من حولها حتى بقت سيدة واحدة، وفي ناحية أخرى أصبحت الشابة وحيدة وحولها هالة سوداء

غريبة ونظراتها اختلفت عن تلك التي زينت محياها، عندما كانت قرب هؤلاء الناس.

وهناك رسمة لبيت، وجهتُ ضوء الكشاف نحوه، بيت وأمامه تلك الفتاة مرة أخرى وهناك سيدة عجوز تمسك يدها وتصعد بها نحو ذلك البيت، وبعدها نفس البيت ولكنه بدا مهجورًا، ومن بين كل هذا وجدتُ ما أرعبني حقًا، لقد كان اسمي منقوشًا على الجدار بجانب تلك الرسمة مع أسماء أخرى بدت مألوفة لي ورسوم مرعبة هنا وهناك! تراجعتُ مذعورة، حتى كدت أسقط على السلالم، وفجأة وجدت من تمسك بذارعي، صرختُ بكل ما أوتيت من قوة، وعلمتُ أنها نهايتي، لقد كانت هي.. تلك الغريبة ترمقني بنظراتها المخيفة.

خرج صوتي مرتعشًا، وأكاد أجزم أنها لم تسمعه حتى:

- من أنتِ؟

- لا أظن أنكِ ستودين معرفة من أكون يا ولاء.

وجدتُ نفسي أصرخ في وجهها قائلة :

-أنتِ شيطانة! لماذا تفعلين كل هذا؟ أذيتي الكثير من الناس وما هذه الرسوم والنقوش الغريبة؟

-أنا لم أفعل أي شيء بعد، صدقيني إنهم يستحقون ذلك.

-ومن أنتِ لتقررين ذلك؟

انفلتت منها ضحكة قصيرة وقالت بصوت مروّع:

-أنا قدركم الأسود.

هززتُ رأســـي نافية وأنا أشــتم رائحة الموت من حولي فاقتربت مني، حتى على ضـوء الكشـاف، اسـتطعتُ رؤية ملامحها الكئيبة المخيفة. لم أشـعر بأي شــيء عندما نطقت بتلك العبارة، سـوى أنني أحسـسـتُ أني أطفو، أطفو في اللامكان واللازمان، لا أدري هل سـقطتُ على الأرض أم أنني مازلتُ واقفة أمامها نتشـــاجر، ولكنني لم أعد أرى أي شـــيء، تلاشـــى الضـــوء، اختفت الأصـــوات والرســـومات، وأدركتُ أنه لا مفر ولا مهرب منها ولا أدري ما مصيري الآن.

العمر لحظة

انتهيتُ من عملي الشاق وأنا في أوج غضبي وثورتي بعد أن تم خصم مبلغ كبير من راتبي لأسباب غير منطقية بالنسبة لي، فأنا في حاجة ماسَّة لكل قرش أجنيه لأقوم بسداد ديون عائلتي التي لا تنتهي، ولأن عيد ميلاد شقيقتي الصغرى اليوم فقررتُ الذهاب إلى سور الأزبكية لأبتاع لها بعض الكتب التي تحبها.

لم أكن في مزاج جيد لشراء أي شيء ولكنني أعلم أنها ستستاء كثيرًا إذا عدتُ إلى المنزل خالي الوفاض ولكي أُجنب نفسي محاضرة طويلة عن أهمية هذا اليوم بالنسبة لها لذا رضخت لصوت عقلي واشتريت لها ثلاثة كتب لا أتذكر أسماءها حتى، ولكن البائع أكد لي أنها ستعجبها فقررتُ الوثوق في ذوقه، نقدته بالمال وانصرفت وبينما أهُم بالرحيل رأيت مشهدًا جذب انتباهي تلقائيًا.

كان هناك بائع يجلس على الأرض وأمامه أحذية لا تصلح للشراء أبدًا ولا يمكن أن أطلق عليها مستعملة حتى، وجدتُ رجلًا بسيط الهيئة أشعث الشعر، وقد زحف الشيب رأسه حتى اجتاحه يتقدم من البائع بينما يقلب الأحذية بعناية، وقفتُ أراقب المشهد، أما عن البائع فكان يخبره بنفاد صبر أن يلتقط الحذاء الذي يريده سريعًا، حتى لا يفسد ترتيب باقي الأحذية التي يدّعي أنها منظمة، أما عني فلم أرِ إلا فوضى وغضب البائع ليس له أي مبرر!

لم يجبه الرجل وظل يقلب الأحذية بحثًا عن شـــيئًا خاصًـــا؛ لاحظتُ بريق عينيه وهو ينتقي الحذاء بعناية وابتســـامة جميلة زينت ثغره فعلمت أنه وجد ضـالته أخيرًا، لم يكن أفضـلها ولكنه أعجبه على كل حال وأحس بالانتصـار لذلك؛ تنفس البائع الصـعداء وجاءت اللحظة التي كان ينتظرها أن يدفع المال ويرحل، وضـــع الرجل يده في جيب بنطاله بحثًا عن نقوده، أخرج ثلاثين جنيهًا.

فقال البائع بغضب:

- أريد عشرين جنيهًا إضافية.

فأجاب الرجل بحرج:

- ولكن هذا كل ما معي! والحذاء ثمنه لا يزيد عن هذا.

- وأنا أقول أن الأسعار أصبحت في السقف وهذا ليس بيدي!

- هيا يا رجل المبلغ ليس بقليل والحذاء كما تعلم.

-لا يوجد فصال عندي! اترك الحذاء، وارحل إذا لم يكن معك مالًا كافيًا، وإذا لم يكن يعجبك.

نظر الرجل مطولًا إلى الحذاء بحزن شـــديد، وبدا أنه يعيد التفكير من جديد، وبتنهيدة متعبة أخرج الرجل عشرة جنيهات إضافية قائلًا:

-لا أســـتطيع دفع أكثر من هذا، والحذاء أنا حقًا أرغب في شـــرائه من أجل ابني، اليوم عيد ميلاده.. أنت بالتأكيد تفهم.

زفر البائع بضيق وانتشل المال من يده بينما يغمغم بضجر:

-لا أدري من أين يأتي لنا وجع الدماغ هذا كل يوم!

ثم رحل الرجل وفي يده يحمل الحذاء بحرص وهو يشـــعر بالابتهاج رغم الموقف المهين الذي تعرض له والذي ســـبب لي الكثير من الضـــيق بعدما أحسست أن الرحمة قد نُزعت من قلوب البشر وحل مكانها القسوة والجفاء.

وشـعرت بحاجة إلى اسـتنشـاق بعض الهواء وفكرتُ في الذهاب إلى ميدان الأوبرا؛ أحب الجلوس هناك. ومن بعيد لمحتُ، لحسـن حظي، مقعدًا شـاغرًا وهذا لا يحدث كثيرًا فركضـتُ صـوبه على الفور دون أن أهتم بالسباب التي تلقيتها من سائقي السيارات المحترمين.

أرخيتُ جســدي على المقعد وأمســكتُ هاتفي أعبث به وحينما مللت قررتُ مراقبة الوجوه من حولي. عائلات سعيدة تجلس هنا وهناك على المقاعد وفي "الجنينة"، متحابون من جميع الأعمار يتشــابكون الأيادي وفكرتُ في خيبتي بينما أرى الوجوه السعيدة والضحكات العالية، ورأيت شبان يمزحون مزاح سخيف مع بعضهم البعض.

نظرتُ إلى التمثال الماثل أمامي بشــموخ ورفعة، تمثال إبراهيم باشــا" بينما يمتطي جواده في كبرياء ويشــير بســابته إلى حيث لا أعلم، ولكنه يجذبني كثيرًا ولا أتوقف عن النظر إليه حينما آتي إلى هنا، صــنعه فنان فرنســي محترف يدعي "كورديه" بأمر من ابنه "الخديوي إســماعيل"؛ وتمنيتُ لو أنني أحظى بواحد مثله ذات يوم، لكن لماذا سأمتلك واحدًا وأنا مجرد نكرة لا فائدة منه بينما هو "إبراهيم باشا" العظيم!

ظللتُ على هذه الوضـعية حتى شـعرتُ بأحدهم يجلس بجانبي؛ كان هو ذلك الرجل من جديد وقد جلس ليرتـاح من وعثـاء الطريق؛ وجدته يلتقط الحذاء من الكيس وقد تسـنى لي رؤيته بوضـوحٍ الآن، حذاء رياضـي قديم وبالي بعض الشـيء لصـبي صـغير وقد فقد لونه الأبيض الناصـع ورونقه للأسـف؛ شرع الرجل في وضع رباط الحذاء بعناية وهو يتأمله بدقة.

حدقتُ إليه وإلى ما يفعل ومن حين لآخر كان ينظر إليّ شذرًا، بينما يكمل ما يفعل بهدوء كرسـام محترف يمزج ألوان لوحته بعناية أو موسـيقار يعزف سيمفونية خاصة؛ وحينما انتهى من وضع رباط الحذاء، أخرج منديلًا قماشيًا من جيبه وكان معه زجاجة ماء صـغيرة فبللها وصـار يمسـح الحذاء محاولًا إعـادتـه إلى لونـه الطبيعي؛ حرك القمـاش على الحـذاء وأنا مذهول مما يفعل، يبدو أنه يحب ابنه كثيرًا ويريد أن يمنحه هدية خاصـة ورغم ذلك فإن ضـيق اليد لم يقف عائقًا أمامه فها هو يسعى إلى إصلاحه، طال تحديقي إليه فحرك رأسـه ناحيتي ونظر إليّ مباشرة ولكي لا أحُرجه أشحتُ بوجهي عنه فاستمر في تلميع الحذاء.

أمسـكتُ هاتفي من جديد لكي أكف عن النظر إليه حتى لا يسـتاء، رأيت منشورات مضـحكة للغاية على الفيسبوك ولم أستطع كبح ضحكاتي مما أثار توتر الرجل الذي يقبع جانبي والذي ظن أنني أسـخر منه! فما هي إلا ثوانٍ؛ حتى أعاد منديله إلى جيبه والحذاء إلى الحقيبة السـوداء ونهض من مكانه، شعرتُ بالضيق لأنه ظن بي السوء! ولم أمتلك الوقت لأشرح له.

راقبته بينما يرحل ولم أستطع الذهاب إليه؛ وجدته يقف عند بائعة ألعاب وهو يحاول شـراء لعبة لابنه وبدا أن البائعة لم تكن لطيفة معه، ولم تعطه اللعبة

بالسعر الذي أراده لذا رحل وهو يجر أذيال الخيبة. فانتعشت ابتسامته من جديد بعدما نظر إلى الحقيبة في يده.

سرتُ خلفه دون أن يراني ولا أدري لماذا؛ ربما سعيت إلى الاعتذار منه، شارع وراء شارع ثم وجدته يتجه إلى عمارة ما بسيطة للغاية، وهناك كان يلعب الصبيان بمرح دون أن يهتموا بأي شيء حولهم سوى اللعب فقط والاستمتاع باللحظة الحالية، فدنا منه طفل صغير وركض نحوه حال رؤيته واحتضنه بحنان، فنزل الرجل إلى مستواه وأعطاه الحذاء، أمسكه الصبي بسعادة بينما يضحك عاليًا.

فأصابتني عدوى الابتسام والابتهاج ونسيتُ ما حدث لي تمامًا بل شعرتُ بالخجل من نفسي لأجل أمورٍ كثيرة في حياتي. وكان الصبي يقفز مغتبطًا بينما يتباهى أمام أصدقائه بهديته، وأيقنتُ أنني مدين لهذا الرجل بالشكر والعرفان وكذلك الاعتذار؛ فلأول مرة أشعر بطعم الفرحة بهذا الشكل كما لو أنني أنا الصبي، وأنا من حصلت على الهدية، أو أنني أنا الأب الذي سعيتُ إلى إسعاد ابني الوحيد وأدركت أن العمر ما هو إلا لحظة واللحظة تساوي الكثير؛ والأشياء مهما بلغت بساطتها فإنها قادرة على إسعادنا.

ماذا يحدث؟

استيقظتُ وأنا أشعر بألمٍ حادٍ في رأسي لا أدري سببه، على الرغم من أنني نمتُ مبكرًا البارحة! حاولتُ أن أتحامل على نفسي لأنهض من سريري، وأخرج من غرفتي لإحضار دواء ينهي هذا الصراع داخل رأسي؛ سرتُ بخطوات غير متوازنة بينما أبحث عن أمي لكي تنجدني، وجدتها أمام التلفاز تتابع برامج الطبخ بلهفة وهي تحمل بين يديها قلم وورقة لتدوين الوصفات التي لم أرى منها أي شيء إلى الآن سوى الوجبات المعتادة الموجودة في كل بيت مصري؛ فجلستُ جانبها لكنها لم تنتبه لي وأنا أمسك برأسي متوجعة.

فقلتُ في محاولة لجذب انتباهها:

- أمي أنا...

وقبل أن أكمل حديثي بترته قائلة بغضب:

-انتظري يا "دارين" حتى أدون هذه الوصفة لأقوم بإعدادها لغداء اليوم.

تأففتُ بملل وقررتُ النهوض لأبحث عما أريد، وحينما نهضتُ من مكاني بغضب لأنها لم تستمع إليّ؛ شعرتُ بشيء طري اصطدم بظهري فالتفتُ بدهشة نحو أمي التي قالت من بين أسنانها:

-وهل أنتِ صغيرة في السن لا تستطيعين البحث عن الدواء وحدك! أنتِ ما شاء الله في الرابعة والعشرين تستطيعين القيام بأي شيء بنفسك لكن لا! بدلًا

من ذلك تثرثرين بالكلام لأنني الخادمة التي أحضرها لكم والدكم ولا حق لي في مشاهدة التلفاز حتى! ما هذا الظلم يا ربي! يا ويلكم من الله.

وقفتُ مصعوقة بلا حراك، لساني يعجز عن الرد، وأحاول استيعاب سبب ثورة أمي بهذا الشكل؛ فأنا لم أتفوه بكلمة، نهضتُ بهدوء ولم أفعل أي شيء يستدعي هذا الكلام كله.

فحاولتُ تهدئتها قائلة:

-اهدئي يا أمي، ماذا حدث لكل هذا؟ أنا لم أقل أي شيء.

-طبعًا تلعبين دور البريئة التي لا تفعل أي شيء؛ بينما أنا الأم شريرة، أليس كذلك؟

-لا، لا يا أمي... لم أقصد... أنا!

-لا يهم؛ لا يهم؛ اغربي عن وجهي.

فكرتُ أن أفضل حل هو الانسحاب الآن لأنني سأخسر هذه الحرب بلا شك لذا رفعتُ راية الاستسلام وانسحبتُ بينما أفكر فيما حدث للتو؛ أمي تقول أنني كنت أثرثر بالكلام وأنا لم أفعل! أنا متأكدة، لكن لأكن صريحة لقد تذمرتُ بيني وبين نفسي ولا أظن أنها سمعتني! لكن ماذا إذا كان صوتي عاليًا؟ لكن ولا مرة من المرات حدث هذا الأمر.

شعرتُ برأسي يدور؛ فوقفتُ مكاني للحظة استعيد توازني، فوجدتُ أختي أمامي ويرتسم علي وجهها القلق، وحالما رأتني أردفت:

-ماذا بكِ؟ وماذا بها أمي؟ ارتفع صوتها فجأة.

-أشعر بصداع رهيب، دليني على مكان الدواء، وسأحكي لكِ كل شيء.

أحضرت لي الدواء وجلسنا في غرفتنا، وحكيتُ لها ما حدث؛ طبعًا انفجرت ضاحكة كعادتها، وقالت بمرح:

-لا تغضبي، تعلمين كيف تقدس أمي هذه البرامج.

-لست مستاءة، لكن الموقف غريب؛ أنا متأكدة أنني لم أقل أي شيء يزعجها.

-ربما تحدثتِ بصوت عالٍ دون أن تشعري.

-احتمال وارد.

-حسنًا، لا بأس؛ سأحاول إصلاح الأمور.

فقلتُ داخل نفسي" وماذا تريدين بالمقابل؟"

فرأيت ملامحها تبدلت فجأة إلى العبوس وأجابت على سؤال عقلي، فظننتُ أنه توارد أفكار لا أكثر:

-لا أريد سوى أن تتصالحا يا "دارين"، سأذهب الآن، "سلمى" في انتظاري لنذهب لشراء فستان خطبتها.

-هل تريدين مال؟

-لا شكرًا؛ وداعًا.

أولتني ظهرها ولكنني شعرتُ أنها قالت أنها تحتاج إلى المال؛ فأوقفتها وذهبتُ صوب حقيبتي وأخرجت منها بعض المال ثم تقدمت تجاهها.

- تفضلي

- لكني لا أريد مال!

- ماذا؟! لكنني سمعتك وأنتِ تقولين أنكِ في حاجة إليه.

بدت ملامح الصدمة على وجهها ودافعت عن نفسها قائلة:

-لكنني لم أقل ذلك! ماذا دهاكِ اليوم يا "دارين"؟

- لكن...

- أظن أنكِ في حاجة إلى الراحة.

تركتني وذهبت بعد أن صـكت الباب بغضـب؛ والآن ماذا يحدث! أنا متأكدة أنها قالت أنها تريد المال! لماذا هي غاضبة الآن؟

اتجهتُ إلى سريري بتعب، وشعور بالانزعاج يلتهم رأسي؛ يبدو اليوم غريبًا للغاية، أولًا أمي وها هي ريم كانت على وشك أن تتشاجر معي من لا شيء؛ فكرتُ في أن أخذ جولة بالسيارة لاستنشاق بعض الهواء، فنهضتُ لارتداء ملابسي؛ وجدتُ أمي هذه المرة في المطبخ، دنوت منها بهدوء. فقلتُ:

-سأخرج قليلًا يا أمي، هل تحتاجين إلى شيء ما؟

رنت بعينيها تجاهي ولم تنبس، تنهدتُ بأسـى؛ أردتُ أن أعتذر منها عما حدث، لكن عدلتُ عن ذلك؛ فأنا لم أفعل أي شيء!

وأكملت تقطيع البصـل، وذهبتُ في طريقي لكنني عدت إليها مجددًا حينما سمعتها تقول "كنت أريد خمسة أكياس من الملح".

- من عيوني يا أمي، سأحضر لكِ الملح؛ هل تريدين شيئًا آخر؟

- عن أي ملح تتحدثين؟ أنا لم أطلبه منكِ!

ضحكتُ لتخفيف الأجواء وأردفتُ:

-يا أم "دارين" دور القسوة لا يليق بامرأة طيبة مثلكِ، سمعتك وأنتِ تطلبين مني الملح.

-هل أنتِ مجنونة أم تحاولين إصابتي بالجنون؟ قلت لكِ أنني لم أطلب أن تشتري أي شي! هل تظنين أنني كبرتُ وخرّفت؟ لا يا عزيزتي دماغي لا يزال يعمل بشكل جيد، لكن ليس تمامًا وهذا بسببكم أنتم! أخذتم زهرة شبابي وعقلي!

لاحظتُ أنني زدتُ الطين بلة، فانصرفتُ سريعًا قبل أن أتسبب بكارثة! وعقلي لا يستوعب ما حدث؛ هل أصبحتُ أهلوس؟ أنا متأكدة أنها طلبت مني شراء أكياس الملح! لمَ الإنكار إذن؟

ركبتُ المصعد وخرجتُ من البناية تجاه سيارتي ولا يزال عقلي يفكر فيما حدث للتو؛ وتوصلتُ أن أمي متعبة فنحن نحمّلها ما فوق طاقتها لذا من الطبيعي أن تنسى؛ وهذا يفسر عصبيتها الزائدة اليوم، هذا ما توصلتُ إليه؛ أدرت محرك السيارة إلى حيث لا أعلم، أصبحت هذه عادتي بعد أن فقدتُ وظيفتي. كنتُ أعمل في شركة اتصالات "كول سنتر" لكنني تركتُ العمل بسبب الضرر الذي لحق بأذنيّ نتيجة وضع السماعات طوال فترة العمل واستقبال العديد من المكالمات.

ومن يومها وأنا لم أبحث عن آخر، ربما أحببتُ الجلوس في البيت لأرتاح قليلًا على الرغم من أن هذا أسوأ ما قد يحدث للمرء؛ فحينما أجلس في البيت

لا أكف عن الشجار مع عائلتي وهم كذلك، نفتعل الشجار على أتفه الأمور، والعمل كان لي بمثابة طوق نجاة وبفقدانه غرقتُ في المشاكل؛ أظن أن الأمر يحدث للجميع خصوصًا يوم الجمعة المعروف بيوم الخناقات العالمي نظرًا لتجمع أفراد الأسرة في نفس الوقت والمكان وهذا لا ينفي قدسية اليوم العظيم طبعًا؛ اجتاحتني رغبة ملحة في التمشية على النيل بالسيارة، فرضختُ لرغبتي، وبعدها بدقائق وجدت ريم تبعث لي برسالة تطلب مني شراء ملح لأمي لأن المال معها لا يكفي!

توقفتُ أمام الرسالة بفيهٍ متسع، إذن أنا لا أتخيل! كلتاهما كانتا في حاجة إلى المال والملح! لم المراوغة إذن؟ يا له من أمر مضحك! نفضتُ هذه الأفكار عني فأنا في حاجة إلى بعض الهدوء، فتحتُ المذياع على صوت أم كلثوم المحبب إلى قلبي فترتخي أعصابي وأتناسى بشاعة اليوم.

مرت الساعات، وتمشيتُ على النيل، وشعرتُ أنني أفضل حالًا؛ وقررتُ العودة إلى المنزل لكن بعد شراء ما تحتاجه أمي؛ ذهبتُ إلى السوبر ماركت بالقرب من منزلي، ووجدت نفس الشاب البغيض الذي لا يكف عن النظر إليّ بتبجح وبطريقة تستفزني كثيرًا لكن على مدار حياتي تعلمتُ كيف أتجاهل مثل هؤلاء الحمقى، فارتسم الغضب على ملامحي وأنا أدخل لشراء ما احتاج؛ وما منعني عن التراجع والذهاب إلى محل آخر هو والده عم "حسام" الطيب، الذي حال رؤيتي قال ببشاشة:

- كيف حالك يا "دارين"؟

- بخير يا عم "حسام".

- وكيف حال العائلة الكريمة؟ لم أرِ الأستاذ "سالم" منذ فترة؛ أتمنى أن يكون بخير.

- هو بخير الحمد لله، لكن أنت تعلم ضغوط العمل.

- كان الله في عونه يا ابنتي.

اكتفيتُ بالابتسام وأنا أندسّ داخل المحل لشراء ما أريد، وعيون المغفل "جابر" تلاحقني أينما ذهبت وأنا في أوج غضبي وحدثتُ نفسي أنني أتمنى لو يختفي من هم أمثاله ليرتاح العالم!

فوجدته يقول ساخرًا لكن بصوت لا يصل لوالده الجالس في الخارج يدخن نرجليته:

- حرام عليكِ يا آنسة "دارين" لما كل هذه القسوة! تتمنين أن اختفي! والله عيب، نحن جيران ونسكن في نفس البناية. وكوني أعمل في هذا المحل مع والدي لا يقلل من قدري! أنا خريج معهد محترم. كفاكِ غرورًا!

التفتُ مصعوقة وكادت مشترياتي تسقط من بين يداي من هول الصدمة، انعقد لساني واكتفيتُ بوضع مشترياتي أمامه ثم أعطيته المال وانصرفت حتى أنني لم أنتبه أن عم "حسام" كان يناديني لأخذ الباقي! هذا اليوم يزداد غرابة على غرابة، وللمرة الألف أتحدث بصوت عالٍ! لكن كيف؟ أنا متأكدة أنني تحدثت إلى نفسي.

كيف له أن يسمعني؟ ربما مجرد تخمين؟ لكن أي تخمين هذا الذي يكون بمثل هذه الدقة! أنا مشتتة كليًا! وما أزعجني أنه نعتني بالمغرورة؛ وأنا لا أقلل من قدره لكنني أنزعج من وجوده فهو يضايق بنات الحي والجميع

يغض الطرف عنه من أجل والده الرجل المحترم المصـــاب بكل أمراض الدنيا، لكن طفح الكيل حقًا.

أردت أن أرد عليه لكنني لم أكن في مزاج يسمح لي بالشجار يكفي ما حدث على مدار اليوم الذي أتمنى أن ينتهي، قاربت الســـاعة على الســـابعة، وأنا أتمنى ألا يحدث شيء آخر يعكر مزاجي، وسأحاول أن أتحكم في لساني مع أنني متأكدة أنني لا أتحدث فكلها أمور داخل عقلي! وصلتُ إلى البيت أخيرًا فوجدتُ أمي جالسة ترمقني باستياء. فقلتُ مداعبة:

- كيف حالك يا أطيب أم في الدنيا. أتمنى أن تكوني في مزاج أفضل الآن.

- طبعًا خرجتِ تتسكعين ولا يهمك أي شيء.

- ماذا حدث مرة أخرى يا أمي؟

- يبدو أن "ريم" تشـــاجرت مع صـــديقتها وعادت وهي تبكي ولا تريد أن تخبرني بما حدث.

- سأذهب إليها، لا داعي للقلق.

طرقتُ الباب وعندما لم يأتيني رد اقتحمتُ الغرفة.

فقالت بشراسة:

- اخرجي!

- اهدئي يا "ريم"، أخبريني ماذا حدث.

- لا أريد أن أتحدث.

- من فضلك، أنا أصر.

تنهدت باستسلام؛ تقدمتُ بهدوء لأجلس إلى جانبها.

- ماذا حدث؟

- تشاجرتُ مع "عزيز".

- وهل هذا جديد؟

نظرت إليّ نظرة نارية أسكتتني.

- لما تشاجرتما؟

- تعلمين أنني خرجت مع "سلمى" اليوم لشراء الفستان، المهم أن "عزيز" قرر مقابلتي بعدها، وبينما نحن في أحد الكافيهات كانت هناك فتاة تجلس بمفردها بالقرب منا. تصوري وجدته يتغزل فيها! والأسوأ أنه يقسم بأغلظ الأيمان أنه لم يقل أي شيء ولكنني متأكدة أنني سمعته يقول أنها فتاة جميلة حتى أنه تمنى لو يجلس معها! تشاجرتُ معه وتركته ورحلت لكن أمي لا تعلم بخصوص هذا الموضوع، أخبرتها أنني تشاجرت مع "سلمى".

- هل أقسم أنه لم يتفوه بكلمة؟

- بالطبع! وهو كاذب حقير.

- ربما لم يفعل.

- وهل أنا مجنونة أهلوس! سمعته ولكن الجبان قالها بصوت منخفض.

ســكتُ وحاولتُ ربط الأحداث، ربما لهذا علاقة بما يحدث من أول اليوم؟ لا أعلم ما الذي أحاول الوصــول إليه، لكن أشــعر أن هناك أمرًا بالغ الخطورة يحدث.

- فعلًا هو أمر بالغ الخطورة! لكن عن أي ربط أحداث تتحدثين!

نهضتُ مفزوعة هذه المرة، وقد صدق حدسي!

تفاجأت "ريم" من ردة فعلي ومن وجهي المذعور، فغمغمت:

- لم نهضتِ هكذا كما لو أن عقربًا لدغك؟

- "ريم" كيف علمتِ بما أفكر به؟

- عن ماذا تتحدثين؟

- ريم من فضــلك أخبريني، أنا لم أقل أي شــيء منذ قليل! لقد كانت كلمات تدور داخل رأسي!

- يا إلهي هذا نفس ما قاله "عزيز" الخائن! أنها مجرد أفكار لعينة مرت برأسه، لكنني سمعتكِ!

أمسكتُ برأسي، أشعر أن الأفكار ستنفجر داخله، دنت "ريم" مني وأجلستني، لاحظت شحوب وجهي فقالت بقلق:

- تتصرفين بغرابة منذ الصباح يا "دارين" ما الأمر؟

- ربما لا تصدقين ما أقول، وتتهمينني بالجنون لكن هذا يحدث فعلًا.

- ما هو؟

- أفكارنا أصبحت مكشوفة!

-لا أفهم.

-لا أدري كيف.. لكن.. الأفكار.. كل ما يدور في رأســنا مكشــوف! الجميع يستطيع الإطلاع على ما يدور داخل رأسك.

- واضح أنكِ جننتِ بالفعل.

- لا تصدقيني؟ حسنًا دعينا نجرب.

صـمتنا، ونظرات الشـك والريبة أراها في أعين أختي الصـغيرة، التي على وشك أن تطلب رقم مستشفى المجانين؛ لكنها كانت على وشك أن تصدقني حينما قلتُ داخل عقلي أن "عزيز" هذا أحمق ولا يصلح لها.

فقلتُ:

-أخبريني ما سمعتِ للتو.

-أن "عزيز" أحمق ولا يصلح لي!

-هذا صحيح؛ أرأيتِ!

-هذا محال!

-جربي.

صمتت هي الأخرى، حاولت أن تفتش عن شيئًا تقوله.

-لقد قلتي أنك تحبينه؟

قالت بأعين مشدوهة:

- أجل! كيف عرفتِ؟

- لا أدري، لكنني سمعتكِ!

- يا إلهي ماذا يحدث؟ أيعني هذا أن "عزيز" لم يقل هذا بالفعل؟

- بلى، لكنها كانت أفكار داخل رأسه! حديثه الداخلي أصبح خارجيًا!

- يا ويلي! هذا يفسر الكثير.

وبدأتُ أحكي لها عما حدث، من بداية اليوم ونهاية ما حدث مع "جابر".

ألجمنا الصـــمت وكلًا منا تفكر وحدها؛ على الرغم من أنني الآن أعلم فيما تفكر وكأنها تطلعني عليه لكنها في الحقيقة تتحدث إلى نفسها.

- ما هذه الكارثة يا "دارين"؟

- أجهل تمامًا ما حدث، ظننت أن بي خلل ما منذ الصـــباح، لكن ما يحدث حقيقي، كل البراهين تؤكد ذلك، مازال لديكِ شك؟

- أجل، وهل تظنين أن هناك عقلًا يستطيع استيعاب هذا!

- معكِ حق، لكن هذا يحدث بالفعل، ولمزيد من التأكيد سنخرج إلى أمي الآن وسنرى ماذا يحدث؛ لا تقولي أي شيء، دعي أفكارك تقوم بهذه المهمة.

نفذت ما طلبت، كانت أمي في المطبخ تعد الغداء؛ اقتربتُ منها وأنا أقول داخليًا أنني أريد الاعتذار منها. فجاء الرد الذي نحن في انتظاره:

- أخطاءك أصبحت كثيرة يا "دارين" وأنا تعبت.

وجدت "ريم" بفم متسع وأعين تكاد تخرج من محاجيرهما؛ نظرت إليّ بعدم تصديق؛ لكن كما قلت أفكارنا الباطنية تمردت وخرجت من سجنها لنعاقب نحن أسوء عقاب إذا كانت أفكارًا تضر بصاحبها كما حدث معي.

قالت أمي:

- لما هذا التجمع وما هذه الوجوه الكئيبة! والدكما على وشك الوصول، هيا، هل ستساعدنني أم كالعادة ستذهبان لاحتضان الهاتف؟

بدأنا بمساعدتها وأنا أدعو الله ألا تفضحنا أفكارنا؛ وجودنا في نفس المكان هو أمر كارثي.

بدأنا في مساعدة أمي وحاولتُ التفكير في أمور جيدة وطلبتُ، بصوت هامس، من "ريم" أن تفعل نفس الشيء، كان الأمر في غاية الصعوبة لأن ريم لم تتوقف عن التذمر لأنها ليست في مزاج جيد للوقوف المطبخ، فطردتها أمي منه بعد أن أمطرتها بالموشح المعتاد، الآن أنا بمفردي مع أفكاري؛ لا، لا لن أفكر، سأسيطر على نفسي، تماسكي يا "دارين" تماسكي؛ وجدتُ أمي تحوقل والشرار يتطاير من عينيها.

- هل أحضر أحدًا من الشارع لكي يساعدني! أخرجي يا "دارين" شكوتكما لواحد أحد! هيا أخرجي.

- لكن يا أمي..

- أخرجي!

خرجتُ سريعًا قبل أن أتلقى ضربة ما، جلستُ إلى جانب "ريم" على الأريكة مُنهكة نفسيًا، جسديًا وفكريًا.

-ماذا سنفعل الآن؟

- لا أدري يا "ريم" والله! نحن في مأزق؛ حتى أن أمي نفسها لم تسلم من هذا الأمر، والله أعلم ما القادم هي مشتعلة للغاية الآن وأبي على وشك العودة.

- يا ربي من أين أتى كل هذا!

سمعنا صوت المفتاح فوجدنا أبي يتقدم نحونا وهو يبتسم لكن هذه الابتسامة كانت عكس ما بداخله تمامًا فقد صدم سيارة أحدهم واضطر لدفع مبلغ طائل وإذا علمت أمي ما حدث ستُجَنّ بالطبع؛ لم يخبرنا بالأمر لكننا سمعنا أفكاره، لكن "ريم" بذكائها كشفت الأمر، فقال بذعر بعد أن جلس إلى جانبها فقد سمع أفكارها على هيئة حديث بصوت منخفض:

- كيف علمت بأمر السيارة!

تلعثمت قائلة:

- أنا.. أنت...

وحينما لاحظ توترها ولضيق الوقت قال على عجالة:

- إياكِ أن تخبري أمكِ؛ سنتحدث في هذا لاحقًا! لا أعلم كيف علمتِ بالأمر!

ثم نهض واختفى في غرفته بسرعة.

- كشفتِ أمرنا! سيطري على أفكارك!

-هذا صعب للغاية. ولا طاقة لي بهذا.

-سنجد حلّا.

نهضـنا لنعد مائدة الغداء برفقة أمي، بدا الجو مشـحونًا بعض الشـيء يتخلله صمت رهيب لكن والدتي كسرته قائلة:

- ماذا تريد أن تخبرني يا "سالم"؟

التفتت العيون إليه، فتوترت ملامحه وقال بينما يداعب طبق الشـوربة أمامه بملعقته:

- صدمت سيارة أحدهم ودفعت مبلغًا لصاحبه على سبيل التعويض.

ضربت أمي صدرها بذعر قائلة:

- ماذا!

أجاب أبي بهدوء:

- قدَّر ولطف.

- لا أدري يا "سالم" لماذا تأخذ الأمور ببساطة دائمًا هكذا!

- وماذا تريدينني أنا أفعل يا "سناء"! قدر الله وما شاء فعل.

- والأموال التي دفعتها؟!

- أستغفر الله العظيم سأذهب للنوم.

- طبعًا هذا ما تفعله بطبيعة الحال لتتهرب مني!

نظر إليها مصـــدومًا لم يتشـــاجرا منذ وقت طويل، بدت أمي ثائرة على غير العادة، وأبي لم يحاول امتصـــاص غضـــبها هذه المرة لأنه قد فقد أعصـــابه حينما سمع أمي تقول -بين أفكارها- "سئمتُ حياة الصمت هذه برفقتك!"

- ولما تستمرين في حياة لا تريدينها معي يا "سناء"!

توترت ملامح أمي وكنا نحن بأفواه متسعة:

- ماذا تقول يا "سالم"؟

- كما سمعتِ يا "سناء"! لماذا تستمرين في العيش معي إذا كانت الحياة بائسة هكذا كما تظنين!

- لكنني لم أقل ذلك!

- أنا من قُلت يا "سناء". أنا من قُلت.

انصرف وتركنا بملامح واجمة، بدت أمي مصعوقة من كلمات أبي وثورته، لكن ماذا كانت تظن؟ تركت الطاولة وذهبت إلى غرفتنا واصـــطك الباب من خلفها بقوة؛ جلسنا أنا و"ريم" في صمت مقيت. قررتُ الخروج إلى الشرفة لأنني شعرتُ بالاختناق الشديد.

وفجأة وجدتُ في الشـــارع أســـوء ما يمكن أن يراه المرء! رأيتُ امرأة تجر أخرى من شـــعرها بقوة، ورجل يســـب آخر بأقذع الألفاظ. وها هي امرأة أخرى تغادر منزل زوجها وهي تحمل حقيبة كبيرة تجرها خلفها وهي تبكي؛ بينما زوجها يصرخ من الشرفة يترجاها أن تعُد لأنه لم يقل ما ظنته، وهناك ولد يجلس فوق صديقه ويوسعه ضربًا مبرحًا.

وهذا رجل فقد أعصابه فحمل كرسي، ليكسر زجاج محل عم "حسام". عمت الفوضـــى الشـــارع وفي كل مكان. والكثير من المشـــاهد المؤلمة والعنيفة هنا وهناك. فَطِنْتُ إلى الســـبب الذي لا يحتاج إلى شـــرح. الأفكار تمردت علينا وخرجت من جحورها وها هي شاهدة على ما يحدث في العالم وهي تضحك الآن من بعيد على اللعبة التي اخترعتها وتســـببت في أذى كبير لنا وتريد أن تستمر.

فعلم كل شـــخص بما يخبئه الآخر ويضـــمره داخله؛ ففُضـــح الناس وكُشـــفت الأوراق، لكن لما نلقى باللوم على هذه الأفكار واللوم كله يقع علينا نحن؟ أم أننا اعتادنا أن نُسـقط كل شـيء على ما حولنا ونضـع اللوم على الغير! إنها ببساطة أفكارنا نحن ولا أحد سوانا، أفكارنا الفاسدة والخبيثة بمعنى أدق.

وفي النهاية علينا أن نفكر في حل لهذه الكارثة!

دعينا نلتقي

عم الهرج والمرج الشارع، الأصوات الصاخبة استطعتُ سماعها من شباك غرفتي، لم يكن الأمر بجديد، فقد اعتدتُ لكثير من الوقت على سماع تلك الأصوات المنبعثة من المزامير والطبول التي يحملها بضعة رجال، وكانت ترافقهم طفلة صغيرة تتشبث بجلباب أحدهم دائمًا وخمنتُ أنها بالتأكيد ابنته، تبدو كذلك من نظراتها العميقة المعلقة به.

وظيفة تلك الفتاة الصغيرة، كانت جمع المال الذي قلما يلقيه لهم ساكني البنايات من الشرفة، لم أتخلف يومًا عن رمي المال، الذي كنت أدخره خصيصًا لها حينما كنت صغيرًا ولم أتخلف عن عاداتي أبدًا حتى بعدما كبرت. ليس الأمر أنني أفعل ذلك لأنني إنسان معطاء مثلًا، بل لأن تلك الصغيرة سحرتني منذ الوهلة الأولى وكنت أنتظر أن تمر هي وفرقتها من أسفل الشرفة مرة كل أسبوع تقريبًا.

كنت أقف لساعات في انتظارها إلى أن تأتي، أسمع صوت الموسيقى من بعيد فأطمئن أنها قادمة وأستعد لرمي ما ادخرته فتنطلق هي بسرعة لأخذه سواء رميته وأنا أضعه في "مشبك" حتى لا تطير أموالي أو حينما أقرر أن استخدم "السبَت" من أجل أن أطيل مدة نظري إليها.

تساءلتُ كثيرًا هل تلاحظ تلك الصغيرة أنني في انتظارها دائمًا؟ لأنها كانت أحيانًا تبتسم لي أو أنا من يخيل إليّ ذلك، لستُ متأكدًا، يكون يوم حظي حينما

تمر وأراها، لم أكن أعلم اسـمها ولا أين تسـكن ولا ماذا تفعل، كل ما أعلمه أنني منذ الصـغر تعلقتُ بها واحتفظتُ بهذا السـر لنفسـي حتى لا يسـخر مني أحد.

كبرتُ وشـــعرتُ أن هذا الحب ينمو داخلي، أما فهي فلم تتوقف عن مرافقة أبيها الذي علمتُ أنه فقد بصـره فجأة لكن حبه للطبل والمزامير ولقمة العيش جعله يسـتمر فيما يفعل، أحببتُ جمالها ورقتها، كانت أشـبه بالغجر حتى في طريقتهم، كنت أســمعها تغني بشــغف وأصــوات الآلات ترافقها ليزيد من حماسـها أكثر فأكثر، صـوتها أذاب قلبي وقلوب جميع السكان؛ أردتُ فرصـة واحدة لأقترب منها.

أريد أن أعلم اســمها على الأقل، وفي أحد الأيام قررتُ أن أخذ خطوة نحو الأمام، وبينما ألقي بالمال غلفته بورقة وكتبت عليها "ما اســمك" وتمنيت أن تراها وكـان لي مـا أردت، فبمجرد مـا أخـذت الورقـة حتى فتحتهـا ثم التفتت لتنظر ناحيتي وابتسـمت ابتسـامة هادئة وقالت بصـوت لحسـن الحظ سـمعته "حوريـة"، ثم عـادت إلى والـدهـا ورحلت، تهللت أســاريري، أخيرًا علمتُ اسـمها وحفرته داخل قلبي وفي ذاكرتي حتى صـار من الصـعب نسـيانه أو محوه.

وأصــبحتُ أتشــوق لرؤيتها كل يوم وأفكر في خطواتي التالية؛ أردتُ أن أتعرف عليها أكثر، وفكرتُ هل أكتب لها أنني أريد مقابلتها؟ وفعلتُ ذلك دون إرادة مني، ولكنها تخلفت عن المجيء هذه المرة، انتظرتها كثيرًا ولم أسـمع تدفق الموسـيقى الرنانة لسـاعات طويلة ولم أسـتسـلم ظللتُ واقفًا في الشرفة وأنا أدعو أن تأتي فلم تفعل.

شــعرتُ بالاســتياء الشــديد لم تكن من عادتها ألا تأتي، ظننت أن أبيها ربما مريض، حتى لا أعلم أين تسـكن، مر ذلك الأسـبوع بصـعوبة علىّ لأنني لم أتمكن من رؤيتها وانتظرتُ بلهفة الأسـبوع المقبل وجهزتُ الورقة، خشـيتُ ألا تأتي ولحسن حظي جاءت برفقة فرقتها، ووجدتها تنظر تجاه شرفتي بينما تبتسـم وألقيتُ بالورقة؛ أمسـكتها بسـرعة وهزت رأسـها موافقة مع ابتسـامة؛ كتبت لها في الورقة أنني أريد مقابلتها في الحديقة القريبة من هنا.

لا أسـتطيع تخيل مدي سـعادتي وفرحي بموافقتها؛ تجهزتُ لليوم المنشـود، ارتديتُ أفضـل ثيابي وسـارعتُ نحو الحديقة قبل المعاد بنصـف سـاعة لعلها تأتي مبكرًا، انتظرتُ وتأخرت هي. شـعرتُ بالضـيق من جديد، وتدفق إلى رأسي العديد من الأسئلة، هل غيرت رأيها؟ ألن تأتي؟ هل أنا مخطئ؟ الكثير من الأسـئلة باتت تخنقني. ولأنني صـبور بطبعي فلم أسـتسـلم. وحينما طال انتظاري لمدة ثلاث سـاعات تقريبًا ولما أوشـكتُ على المغادرة وجدتها قادمة أمـام بوابة الحديقة تتلفت حولها، فوقفتُ أراقبها من بعيد بينما قلبي يدق بقوة، لاحظت وجودي فـابتسـمت بخجل، وصـلتُ إليها ووقفتُ أمامها مع حفظ المسافة بيننا.

فقلتُ بسعادة:

- ظننتُ أنكِ لن تأتي.

فأجابت بصوت هادئ:

- أعتذر عن التأخير، كان لدي بعض الأعمال التي وجب علىّ إنجازها.

- حسنًا، لا بأس؛ المهم أنكِ هنا الآن يا "حورية"، هل هذا هو اسمكِ صحيح؟

- أجل.. وأنت ما اسمك؟

- سـهولة حصـولك على اسـمي لا يتوافق أبدًا مع معاناتي في معرفة اسـمكِ، كدتُ أفقد الأمل.

ندت عنها ضحكة طويلة أربكت كياني وأسعدت قلبي فشاركتها الضحك.

فأردفت دون أن تنظر إليّ:

- معك حق.

- على العموم اسمي "شهاب".

- اسم لطيف.

- واسمكِ جميل لقد أحببته، لقد وضعتُ لكي في مخيلتي اسم أمل.

- ولما هذا الاسم بالتحديد؟

- لأنكِ بمثابة أمل لي في الحياة.

فابتسمت بخجل واستطعت رؤية احمرار وجنتيها، فلم يتوقف لساني عن قول المزيد.

- من أنتِ يا حورية؟

فرفعت حاجبيها وأشارت أنها لا تفهم ماذا أعني تحديدًا، فقلتُ:

- أريد أن أعلم عنكِ المزيد، لقد كنت في انتظار هذه اللحظة منذ سنوات.

-ولكن لما؟ لا أظن أنك سترغب في معرفة من أكون.

بدا صوتها حزينًا ولا أدرى ما السبب، فلم أيأس مع ذلك.

- أنا في انتظاركِ يا "حورية".

- "شهاب"، يجب أن أرحل.

- ماذا! ولكن لما؟ مازال الوقت باكرًا.

- والدي في انتظاري؛ لا أريد أن أتأخر سينزعج، وأنا لا أحب أن يغضب بسببي.

- ولكننا لم نتحدث بعد، هناك الكثير من الأمور التي أرغب في الإفصاح عنها؛ لا ترحلي أرجوكِ.

- الأمر ليس بيدي يا "شهاب"، الوقت ليس ملكي أبدًا؛ سامحني أرجوك.

طأطأتُ رأسي بإحباط وهززتُ رأسي متفهمًا، فقالت:

- إلى اللقاء يا "شهاب".

وحينما أولتني ظهرها، أوقفتها قائلًا بتوسل:

- هل سأراكِ مرة أخري؟

بدت أنها تفكر ثم هزت رأسها موافقة.

- الأسبوع القادم في نفس الميعاد ولكن لا أعدك بذلك.

رحلت وطيفها مازال حولي؛ أدركتُ أنها كانت مترددة لكي تقابلني، لاحظتُ ذلك في عينيها التي لم تكن تلتقي بخاصتي أبدًا، استطعتُ رؤية خوفها وحزنها وبعضًا من السعادة، لم أكن أهتم بهذه الأمور، فقط أردت رؤيتها

مرة أخرى؛ مر الأسـبوع بصــعوبة وذهبتُ إلى الحديقة مرة ثانية، لم تتأخر هذه المرة، جاءت بنفس العباءة السوداء التي لا تخلعها أبدًا.

فقلتُ بحسم:

- لن أجعلكِ ترحلين هذه المرة.

- معي نصف ساعة فقط يا "شهاب".

- أحب سماع اسمي منكِ.

فصمتت بينما تنظر إليّ ثم قالت بتردد:

- ماذا تريد مني يا "شهاب" بالضبط؟

زويتُ بين حاجبيّ حينما لاحظت أنها تتكلم بجدية.

فتابعتُ دون تردد:

- أريدكِ يا "حورية".

-أنت لا تعرفني حتى.

-هذه الأمور لا تهمني.

-أنت متهور.

-يقولون عني هكذا أبدًا، أنا لا أهتم، أحب أن أسير خلف نداء قلبي.

- وماذا قال نداء قلبك عني؟

- قال أنه يريدكِ.

حدقت إليّ تفتش عن صدق كلماتي وكان وجهها خاليًا من التعبير، فلا أدري هل صدقتني أم لا! فتنهدت بينما تسير إلى حيث لا أعلم، سرتُ خلفها، حكت لي عن كل شيء، عن طفولتها وعن كل ما مرت به، استمعت إليها بجميع حواسي، حكايتها كانت مؤسفة بكل ما تحمله معاني الكلمة، إنها فتاة مسكينة فتحت عينيها على الحياة دون أن تجد سوى والدها الذي لم يكن يملك غير طبلته ومزماره وفرقته، يطوفون في الشوارع كل يوم، فرافقته دون ملل أو كلل.

رجل محب للحرية، لا يحب أن يقيده أحد أو شيء، يسير نحو المجهول دون خوف بينما تتشبث ابنته بجلبابه الأبيض، يحاول أن يجعلها تتغذى على رحيق الحياة فتتخذ منها معلمًا ومع ذلك دخلت المدرسة على الرغم من فقره، كان تعليمها هو أكثر ما يهمه، لم تكن تحب المدرسة أبدًا ومن أجل والدها حاولت الاجتهاد ومع ذلك لم تكمل تعليمها، أنهت المرحلة الإعدادية ثم شعرت أن هذا ليس طريقها بينما والدها يشجعها أن تكمل ولكنها رفضت وكان كل ما يهمها هو الغناء.

فسارت تجوب الشوارع برفقة والدها وأتقنت الدق على الطبل واستخدام المزمار وكانت تغني كالعادة بصوت عذب يحرك المشاعر، معظمها كانت أغاني حزينة تشبه المواويل وأخبرتني أنها هي من ألفتها فأصابتني الدهشة من موهبتها الفذة! لم تتحدث عن والدتها فلا أدري هل ماتت أم رحلت وتركتهما؛ لم أرغب في سؤالها خوفًا من أن أثير حفيظتها.

تحدثت براحة معي وسـكبت كل ما في جعبتها على مسـامعي عن أحلامها ومخاوفها وحكت لي أيضًـا عن فقدان أبيها البصـر، ومع ذلك لم يتوقف عن السير في الشوارع طلبًا للرزق في كل مكان وبأي طريقة كانت.

وكذلك حكيتُ لها عن حياتي وعن مدى تعلقي بها وانتظاري لها في كل وقتٍ وحين، تبدل حزنها فرحًا وأنا أسرد على مسامعها تلك الكلمات، عن رغبتي في رؤيتها دائمًا، أنهيتُ حديثي في انتظار أن تقول أي شـيء فلاذت بالصـمت؛ أردتُ أن أعرض عليها أي مسـاعدة فخشـيت أن تغضـب مني وترحل، كنت استمتع بالنظر إليها بينما هي شاردة.

فقالت بغتة لتبدد الصمت بيننا:

- سأرحل يا "شهاب".

فغمغمت بانزعاج:

- بدأت أكره هذه الكلمة.

فانفلتت منها ضحكة قصيرة بينما تقول:

- وداعًا.

- سأكون في انتظاركِ.

وتكررت مقابلتنا مرة كل أسـبوع لفترة طويلة حتى أدمنتها؛ وحينما كانت تتخلف لسببٍ ما أصير كالمجنون أفتش عنها؛ لأنني حتى لم أكن أمتلك رقم هاتفها ولا أدري هل لديها أم لا! وحدث أنه لمدة شـهر كامل لم أعد أراها،

والشهر زاد عن شهرين ثم ثلاثة ثم أربعة، أصابني اليأس في مقتل، ازدادت حالتي سوءًا، لم أكن أعرف ماذا أفعل!

سرتُ أبحث عنها في الطرقات وأسأل عنها وعن فرقتها دون أن اهتدي إلى مكانها. وفي اليوم الذي ظننت أنني وجدتها أخيرًا بدوت أنني أتوهم، علمتُ من أحدهم أنها قد سافرت إلى بلدها وعندما سألت عن أي بلد أجابني الرجل أنه لا يعرف ولكن فرقتها قررت السفر إلى الصعيد، مسقط رأسهم، لسبب لا يعلمه أحد، لا يوجد من الكلمات ما يصف سوء حالتي خلال تلك الفترة، شعرتُ بالسخط والغضب الشديد منها، ظننتُ أنها بدأت تتعلق بي! فكنتُ مخطئًا إلى حد كبير.

رغبتُ أن أخبرها أنني أحبها على الأقل قبل أن ترحل لكي أرتاح وها أنا أعاني مرارة الخذلان وألم الفراق؛ مرت سنة فأكثر دون أن أراها وانقطعت أصوات الموسيقى وصوت غناؤها الذي كان عزائي الوحيد وفقدتُ الأمل كليًا، حاولتُ أن أنساها ونجحتُ في ذلك أو هكذا ظننتُ، وتعرفُ على فتاة أخرى وأحببتها واتفقنا أن نتزوج، هل تسرعت؟ فكرتُ أنني فعلت ذلك لأنساها، أحيانًا كنت أرى فيها "حورية"، أراها في عينيها، في طريقة كلامها، في ابتسامتها، في كل ما يتعلق بها؛ ربما أردت أن أنتشل نفسي من الضياع، هي لن تعود أبدًا وربما تزوجت أيضًا.

تزوجنا أنا و"شروق" وفي أحد الأيام حدث ما قلب الموازين رأسًا على عقب، سمعتُ أصوات طبول ومزامير لعدة أيام، في البداية لم أكن أهتم وظننتُ أنني أتوهم من جديد، فأدركتُ مدى غبائي وخطئي؛ ثم وجدتها هي!

نعم كـانـت هي "حوريـة"؛ "حوريـة" عـادت من جـديـد! بـدت أكثر انطفـاءً واتشـاحًا بالأسـود، شـللتُ بالكامل حينما رأيتها تسـير تحت شـرفتي، لأنني مازلت أســكن في نفس الحي ونفس البناية! رأيتها وأنا أشــعر أنني موهوم وغبي، هذا لا يمكن أن يحدث! أدركت أنها هي فعلًا حينما رنت ببصــرها فجأة نحوي كما لو أنها شعرت بي! ارتعدت أوصالي وفقدتُ الإحساس فجأة! اتسعت ابتسامتها وسط صدمتي العارمة وظلت تنظر إليّ بينما تغني، فجاءت زوجتي لتقف إلى جـانبي فتبدلت ملامحها وتوقفت عن الغناء لوهلة وتركت الفرقة وركضت ولم يكن والدها برفقتها وأزعجني ظهور زوجتي المفاجئ.

فقالت زوجتي بانزعاج:

- لما كانت تنظر إليك هكذا؟

- سآتي في الحال.

تركتها دون أن التفتت إلى نداءها وقررتُ النزول إلى الشـارع لأبحث عنها، يجب أن أفهم ماذا حدث بالتحديد! ركضـتُ في المكان الذي ذهبت صـوبه، لم أجدها! التفتتُ حولي أبحث عنها؛ ســمعتُ صــوت بكاء وشــهقات مكتومة صـادرة من مكان ما، اقتربتُ من الموضـع، كانت هي تجلس على الرصـيف وتبكي بحرقة، اقتربتُ منها وجلسـتُ إلى جانبها، لفنا الصـمت بردائه الكئيب مع دجى الليل، فخلعته عنها قائلة بحزن دفين حاولت إخفاءه:

- مبارك!

فهمت إلى ماذا ترمي! شُـل لسـاني فلم أنبس، قررتُ أن أتجرع بعضًـا من الشجاعة بينما أقول بغضب مصطنع:

- أنتِ من تركتني ورحلتِ.

وجدتها تضحك بين دموعها! مما أثار سخطي، فنهضتُ من فوري وقبل أن أرحل قالت دون أن تنظر إليّ بنبرة أوجعت قلبي:

- لقد رحل أبي فرحلت روحي معه وضللتُ الطريق من بعده.

التفتتُ إليها، وجدت دموعها تنساب؛ اكتشفتُ أنني أكبر أحمق على وجه الأرض لأنني ظننتُ بها الظنون.

فبررتُ موقفي قائلًا بضيق:

- فتشت عنكِ في كل مكان، علمتُ أنكِ سافرتي فلم تتركي لي حتى عنوانكِ أو أي شيء يدلني على مكانكِ!

تنهدت بعمق فاستطردت بيأس:

- هذه هي سنة الحياة.

- لكنني أحببتك يا "حورية"!

- كان هذا أكبر خطأ.

- ألم تفعلي؟

سكتت ونكست رأسها، انتظرتُ إجابتها علَّها تشفي قلبي وجروحه.

- سأرحل يا "شهاب".

ضحكتُ بسخرية محتجًا:

- هذا فقط ما تجيدين قوله! سأرحل يا "شهاب"!

-لا تقسو علىّ من فضلك، أنت لا تعلم أي شيء.

-ساعديني لكي أعلم إذن!

-عُد إلى زوجتك يا "شهاب"؛ هي في انتظارك الآن.

نظرتُ إليها بغير تصـــديق، حدقتُ إليها طويلًا، تمنيتُ لو أقول المزيد فعُقد لســـاني وانقطعت العبارات؛ لم تترك لي خيارًا ورحلت كالعادة، رحلت دون أن تقول أي شـــيء آخر؛ طفقتُ أراقب طيفها بينما يختفي بين الطرقات وأنا في تلك اللحظـة أراها حينما كانت صـــغيرة، أرى "حورية" النحيفة بجلباب أسود صـغير، لا أعلم سبب ارتدائها إياه، وهي تتشبث بجلباب أبيها ورأيتني وأنـا ألقي إليهـا بـالمـال بينمـا أنـا في الحقيقـة كنت ألقي بقلبي إليها، وأيقنتُ أن السماء لن تلتقي أبدًا بالبحر وكذلك "الشهاب" لن يجتمع بـــ "حورية" البحر إلا في الأحلام.

حواء

توفيت جدتي منذ شهر تقريبًا، لم يغمض لي جفن منذ ذلك اليوم المؤلم؛ كانت أقرب الأقربين إلى قلبي، إلى اليوم لا أصـــدق أنها ماتت! أظن أنني أتوهم، هل أنا بالفعل كذلك؟ كل يوم أجلس أمام الشـــرفة في انتظار أن تأتي من السوق كما كانت تفعل وهي تحمل لي الحلويات التي أحبها؛ أصابني الوهن والنصب وفقدتُ الرغبة في الحياة، وفي أحد الأيام وجدتُ أمي جالسة تخيط ثوبي فقلت دون مقدمات:

- هل أنا ميتة يا أمي؟

رنت ببصرها نحوي بينما فغرت فيها ولم تعقب واستمرت فيما تفعل دون أن تتكلم وتركتني أتخبط في حيرة وأرهقتني بواعث قلبي التي رافقتني لوقتٍ طويل، فلم ألح عليها كثيرًا واستنتجتُ أنها لم تجبني لأنها ربما لا تراني! إذن أنا ميتة بالفعل.

ذهبتُ إلى غرفتي بســـرعة؛ وقفتُ أمام المرآة أحدق إلى وجهي الشـــاحب، لامستُ وجهي بأنامل مرتعشة بينما أتفحصه بعناية، لوهلة شعرتُ أنني لا أرى نفســـي بوضـــوح في المرآة، وفكرتُ ماذا لو أنني فعلًا ميتة والجميع أحياء باستثنائي أنا! وفجأة أحسستُ أنني توقفتُ عن الشعور بجسدي وأطرافي، سرت رعدة في أوصالي، وجلستُ على السرير متقوقعة حول نفسي، الفكرة تأصلت داخلي وتعاملتُ مع الجميع على هذا الأساس.

فبدأت حياتي تنهار؛ انعزلتُ عن الجميع، امتنعتُ عن الطعام والشراب والخروج من البيت، لأن الأموات لا يأكلون ولا يشربون ولا يفعلون أي شيء، بدأتُ أفقد السيطرة على نفسي؛ كل شيء أصبح غريبًا، كل يوم يمر أشعر فيه أنني أفقد جزءًا مني، تارة أشعر أنني فقدت بصري فأسير في غرفتي التي لا أخرج منها إلا نادرًا بينما اصطدم بكل ما حولي والظلام يحيطني من كل جانب، وتارة أخري لا أشعر بقدميّ كما لو أنهما متجمدتين أو من زجاج أخشى كسرهما، فأظل جالسة علي السرير بلا حراك، كل يوم هناك مفاجأة جديدة.

أنا حتى لم أكن أنام، الأموات لا ينامون أيضًا! ربما أحيانًا أشعر بتثاقل جفني فأغمض عيناي ولا أدري ماذا يحدث بعد ذلك، أظن حينها أنني أنتقل إلى عالمي الخاص البعيد عن الأحياء ثم أعود إلى عائلتي قبل رحيلي الأبدي، حتى أنني أهملتُ نظافتي الشخصية مما أثار استياء والدتي التي جاءت ذات يوم لتصرخ في وجهي قائلة:

- ما الذي يحدث يا حواء؟

لم أنبس، فدنت مني بحذر لتقول:

- ماذا بكِ يا ابنتي؟ ولما لا تتكلمين!

- لأنني ميتة؟

- ما هذا الجنون!

فأردفتُ بجمود:

- إنها الحقيقة؛ أنا ميتة.

- وهل الأموات لا يتكلمون!

- لا أدري.

- يا ربي! هل تحاولين إصـــابتي بجلطة! انظري إلى وجهك وجســـدك في المرآة! أصـــبحتِ كالمومياء، أنتِ حتى لا تخرجين من غرفتك، لم نعد نراكِ ولو صدفة.

- هذا لأنني ببساطة ميتة ولا وجود لي، وربما أنتِ تتحدثين إلى شبحي الآن، من يعلم.

- بالتأكيد فقدتِ عقلك، هذا ليس تصـــرف فتاة طبيعية أبدًا! وما هذه الحقيبة هناك!

- أنا في انتظار أن أرحل إلى عالمي الخاص، أنا لا أنتمي إلى هنا؛ ففكرتُ أنني ربما أحتاج إلى ملابســي، لا أعلم، تبدو فكرة ســخيفة لأنني لا أشــعر بجسدي ولا أظن أنني سأحتاج إلى ملابس من الأساس، الصوت أخبرني بذلك، هو يخبرني بكل شيء دائمًا.

- عن أي صوت تتحدثين!

- الصـــوت الذي أخبرني بالحقيقة كاملة، الصـــوت الذي ســـاعدني لمعرفة حقيقتي.

- حقيقة ماذا؟

- حقيقة أنني ميتة، وهذه هي روحي التي تحوم في المكان.

- أنا لا أصدق ما أسمع!

ثم نظرت إليّ بوجوم ولم يكن لديها نية للجدال معي الآن؛ خرجت ولم تعد، وجلستُ أنا برفقة الصوت الذي يشجعني على الاستعداد للذهاب إلى عالمي، فلم يبقَ إلا القليل لرحيل روحي، وكنت أرى من شباك غرفتي عروسة تقبع في وسط الشارع لا أحد يقترب منها، تبدو مخيفة ولكنها جميلة من وجهة نظري، جذبتني ومع ذلك لم أخرج إلى الشارع وظلت كاللغز بالنسبة لي لأن لا أحد التقطتها ونظراتها لي تشدني نحوها، فسألتُ أمي عنها حينما جاءت إلى غرفتي من جديد وهي تحمل صينية الأكل التي لا أقترب منها:

- هل لاحظتِ هذه العروسة هناك؟

نظرت إلى الموضع الذي أشير إليه فأجابت بضيق:

- لا يوجد أي عروسة في الشارع يا حواء!

- بلى، إنها هناك ولا أحد يقترب منها.

- أخبرتك أن الشارع خالي!

لم أتفوه بكلمة أخرى وتيقنتُ أنني فقط من أراها، هذه العروسة هي الأخرى ميتة مثلي! أو ربما صاحبتها ميتة الآن! حكت أمي لأبي ملخص ما يحدث معي؛ فجاء إليّ ودار بيننا حوار عنيف لم أكن أتحدث فيه إلا لمامًا مما أثار غضبه الشديد.

- حواء، هيا انهضي لأخذ حمام، رائحتكِ نتنة ولا تحتمل تشبه الكلب الميت! ثم سنجلس لنأكل وعلينا أن نتحدث بعدها في موضوع مهم.

- الأموات لا يستحمون ولا يأكلون ولا يتكلمون.

- وإذا كنتِ ميتة من التي تتحدث معي الآن؟

- روحي مازلت حية كما أخبرتُ أمي من قبل وسأختفي عن قريب؛ ربما أنتم تهلوسون الآن، هذا هو ما توصلتُ إليه.

- نحن من نهلوس!

- بلى.

صاح في وجهي عاليًا بعبارات قاسية ولم يرمش لي جفن، شعرتُ أنني فقدت حاسة السمع، وأدركتُ أنني بدأت أتلاشى؛ وآخر ما سمعته أنه يريد عرضي على طبيب نفسي، قال إن سبب ما أنا فيه هو موت جدتي! ولم يدرك أن موت جدتي كان كالمنقذ بالنسبة لي لأنه جعلني أدرك حقيقتي التي كنت أجهلها، أنني ميتة ولا وجود لي! وإذا كان أحدهم يحتاج إلى طبيب فهي هذه العائلة التي ترى وتتحدث إلى شبح وليس أنا! فكل ما يحدث هو الجنون بعينه.

جاءت والدتي وقالت أنني سأذهب إلى الطبيب في الغد فلم أبالي! وفكرتُ أن الطبيب ربما لن يراني وإنما من يستطيع رؤيتي هي عائلتي فقط أو هكذا أظن، أشعر بالتشوش! ولكن مهلًا ما معني كلمة شعور؟ أنا لم أعد أشعر بأي شيء! وفي اليوم التالي قررتُ الخروج بينما الجميع نيام؛ جاء إلى خاطري هاجس أفزعني. ماذا لو أنني حية والجميع على حق وأنني أحتاج إلى طبيب بالفعل! ولكن ما معني كلمة حية؟ أنا ميتة.. أجل أنا كذلك، لا وجود لي، أنا متأكدة.

كان هناك طريقة واحدة للتأكد؛ طريقة ستجعلني أفهم كل شيء، فقد تأخر رحيلي وأنا سئمتُ من هذه العائلة الغريبة التي تحاول إصابتي بالجنون، وأريد أن أرتاح، الأموات لا يموتون مرتين هذا ما أعرفه وقررتُ استغلال هذه النقطة لمعرفة كل شيء؛ خرجتُ إلى الشارع بهيئتي المزرية، فبدوت كجثة نتنة هربت للتو من المقبرة وهذا مناسب جدًا لحالتي.

وفي النهاية لا أحد يراني وإلا من يفعل سيموت بالسكتة القلبية على الفور! وعلى حين غرة تذكرتُ العروسة التي كانت أراها تحدق إليّ في منتصف الشارع، دنوت منها بحذر وأمسكت بها أتأملها، مسحتُ على رأسها الخالي من الشعر وتحسستُ وجهها الغريب وهناك خط رفيع يزين وجهها بدا كابتسامة شريرة فاحتضنتها بحنان، وعقدتُ العزم أنا أخذها معي في رحلتي لعلي أجد صاحبتها وأسلمها الأمانة أو سأسلي نفسي بها في طريقي الطويل.

ثم لاحت لي في الأفق سيارة قادمة من بعيد؛ انتهزتُ الفرصة لأتأكد من كل شيء، وجاء الصوت ليخبرني أنني على وشك الرحيل الآن وأسعدني ذلك ولكنني أخبرته أنني بصدد فعل شيء مهم قبل الرحيل، السيارة تقترب وأنا على أتم استعداد والعروسة في يدي، أمسك بها بقوة حتي لا تضيع، جاءت السيارة مسرعة فلم أشعر بشيء حينها سوى بجسم صلب قوي اصطدم بي فتلاحمنا وبعدها تلاشى كل شيء واختفى الصوت واختفى العالم من حولي.

ليلة تحدث من العدم

هي هناك نائمة على السرير كالملاك الوديع بعد أن ذبلت عينيها من كثرة البكاء وبعد أن أهلكها الحزن وأنهكتها الدموع، فقررت أن تهرب من العالم بالنوم كما تفعل دائمًا؛ فالبعض يتخذ من النوم وسيلة للهرب من فظائع الواقع إلى روائع الأحلام، لكن ربما تقابل ما تهرب منه في عالم الأحلام وهذا مؤذي للغاية وفي هذه الحالة سيتحول إلى كابوس مروع، فما أصعب أن تركض هربًا من شيء ما ثم تصطدم به فجأة فتسقط مهزومًا مدحورًا، وبما أنها كانت نائمة فكرتُ في أن استغل هذه الفرصة الذهبية التي لا تحدث كثيرًا وأخرج لاستنشاق بعض الهواء.

البيت بدا هادئًا؛ الجميع يغط في نومٍ عميق، فكرتُ في أن أفعل شيئًا مختلفًا لذا عندما طرقت هذه الفكرة رأسي قررتُ تنفيذها دون أن يردعني أي شيء، ولهذا فتحتُ خزانة صديقتي النائمة وفتشتُ عن ذلك الفستان الذي اشترته منذ فترة طويلة لأنه أعجبها ولم ترتدِه إلى الآن ولا أعلم حتى لماذا قامت بشرائه وهو لا يناسب طبيعتها!

كان فستانًا قصيرًا بلا أكمام زهري اللون، ارتديته وأسدلت شعري الذي لم يكن ناعمًا، كالممثلات الجميلات بالتأكيد، بعد أن مشطه بعناية كم لو كنت أتجمل لحفل زفاف ووضعتُ بعضًا من أحمر الشفاه، بدوت جميلة للغاية ومع ذلك لم أعتبر نفسي جميلة يومًا أو هذا ما كانت صديقتي تحاول إيصاله

لي دائمًا أنني لستُ جميلة ولن أصبح كذلك، هي من حين لآخر لا تكف عن السخرية مني وذمي حتى بات الأمر مزعجًا لكن لا يهم!

على الأقل أنا أحاول أن أثق بنفسي بما أنها لم تمنحني الثقة يومًا لأنها ترى أنه لا قيمة لي، في الحقيقة لستُ غاضبة منها فأنا أحبها مهما فعلت فهي صديقتي الوحيدة. أخذتُ أتلفت من حين لآخر خوفًا من أن تستيقظ وتوبخني فما أفعله لا يليق بحالة الاكتئاب التي تعاني منها لكنني قررتُ أن أتمرد وأفعل شيئًا جديدًا تمنيت أن أفعله وهي كذلك أيضًا أرادت ذلك لكن لم يسعفها الحظ ولم تتجرأ يومًا لفعل ذلك. أما أنا فأخيرًا واتتني الشجاعة لأقوم بما أتمنى.

خرجتُ على أطراف أصابعي وتأكدتُ أن الجميع في حالة سبات عميق ولم أنسى أن أخذ علبة سجائر والد صديقتي. لستُ مدخنة لكنني تمنيتُ لو أخوض التجربة وتذكرتُ مفاتيح سيارته، والدها يحبني لذا أظن أنه لن يغضب مني لاستعارتهم، هذا ما أتمناه! فتحتُ باب الشقة وارتديتُ خارجه حذاء عالي باللون الأسود وهو ملكها أيضًا، من الواضح أنني سطوتُ على كل ما تملك وفي الحقيقة راودتني نفسي أن أسافر وأتركها الآن ومع ذلك سأضع هذه الخطة في الحسبان.

لنقل أنها صديقتي المقربة منذ نعومة أظفاري لكنني لم أعد أستطيع تحملها! أنها لا تعطيني حريتي، سئمتُ من اتخاذها قرارات خاطئة باستمرار، كونها فتاة طيبة يؤذيني للغاية يجعلها ضعيفة من وجهة نظري، حاولتُ أن أغير فيها الكثير لكنني فشلت وها هي تدفع ثمن عدم استماعها لي من البداية، هي تشعر بالندم بالتأكيد لكنها لا تريد أن تفصح عن ذلك ولا تريد أن تتغير حتى؛

عانت كثيرًا من خيانة حبيب وأصـــدقاء لأنها كانت تلقي بقلبها بين يداي أي أحد دون أي حرص!

تركت قلبها تتقاذفه رياح الألم لهذا فقدت الســيطرة على الإمســاك به مجددًا والسيطرة عليه، سعيدة أنني لستُ مثلها، نحن مختلفتان تمامًا، أنا أقوى منها! وأردتها أن تكون كذلك لأنها لا تســتحق أن تعاني بحق بســبب قلبها الطيب الذي لا يناسب هذا العالم وهؤلاء البشر لا يستحقونها لكنها غلطتها لم تستمع لي من البداية وقررت دفن صـوتي وحان الوقت لأتمرد عليها، وأن أصـرخ بأعلى صوت رافضةً حكمها المستبد وربما أقطع علاقتي بها نهائيًا.

هل من المفترض أن أكتب إليها رســـالة أخبرها عن وجهتي؟ لكنني لا أعلم إلى أين سأذهب بالتحديد، سأترك قدميّ تقودني إلى حيث تشاء.

فكرتُ أن أعود إليها، شـعرتُ ببعض الشـفقة نحوها، لم يكن عليّ أن أتركها كما فعل الجميع؛ لكنني سـئمتُ منها كما قلت لكنني ربما سـأعود، اسـتقللتُ المصـــعد وبدأت أُدندن بعض الأغاني، الشـــعور بالحرية أمر عظيم للغاية! تمنيتُ لو تشـعر بما أشـعر به الآن، على أي حال هي من قررت أن تسـجن نفسها داخل قفص تركت مفاتيحه بيد الآخرين، كم هي حمقاء وكم أنا ثرثارة.

خرجتُ من المصـعد، استنشقتُ الهواء العليل ملء رئتيّ، نظرتُ إلى الشارع من حولي لم يكن هناك أحد يمشـي فيه إلا قلة قليلة جدًا تتفحصـني باستغراب الآن، وتـذكرتُ أن الوقت متـأخر جـدًا والنـاس نيـام الآن؛ على الرغم من أن المكان هكذا أفضـل بكثير، فالبشـر يلوثون الحياة، لذا أنا أرى أن الحياة كانت ستكون أفضل دونهم.

لنتخيل مكان لا يوجد فيه بشـر حيث الهدوء والسـكينة، حيث لا مكان للعنف والجريمة وكل خطايا البشــر التي تعكر صــفو الحياة، الفكرة أنعشــتني من الداخل! صـعدتُ إلى السـيارة بينما صـوت الراديو يصُـم الآذان وسـرتُ إلى حيث لا أعلم ولم أفكر في التوقف؛ وبما أنني لا أستطيع القيادة بشكل جيد لذا قررتُ أن أترجل منها قبل أن تحل كارثة فوق رأسي وسأعود لأخذها لاحقًا.

كنت أدور حول نفسـي من آن لآخر وفسـتاني كان يتحرك معي بدلال كما لو كنت طفلة أو طائر يحلق في سـماء الحرية، ضـحكتُ وقهقهتُ دون سـبب، أمسكتُ بهاتفي وشغلتُ الأغاني المفضلة لدي مزيج من العربية والإنجليزية بأعلى صـوت دون أن أشـعر بالحرج؛ قررتُ أن أجعل هذا اليوم مميزًا وأن التقط بعض الصـور بل الكثير منها لتشـاهدها صـديقتي عندما تسـتيقظ لأؤكد لها كيف أن الحياة جميلة لو قررنا فقط أن نسـتمتع بها وأن نفعل ما يحلو لنا، كما أفعل الآن.

دون الاهتمام برد فعل من حولنا، في الحقيقة ما أقوم به حاليًا كان اقتراح صــديقتي عليّ، أخبرتني أنها تود أن تفعل ذلك، أن تســير في الشــوارع كالمجنونة، أن تصــرخ وتضــحك وتبكي بلا توقف أن ترقص تحت المطر وتفعل أي شــيء يخطر على بالها لكنها أبدًا لم تكن لديها الجرأة لفعل ذلك، لكنني أمتلك منه حظًا وفيرًا.

ما ينقصـني الآن هو المطر! أحتاج إليه كثيرًا، أريد أن أشـعر به يغسـلني من كل همومي وأحزاني أن ينعش قلبي بقطراتـه المدوية للجروح، آلمتني قدميّ من ارتداء الكعب العالي فقررتُ خلعه، مشـيت حافية القدمين ولم أخشـي أن أجرحها، لم أعد أخشى أي شيء، تحررتُ من كل شيء؛ أنا حرة الآن!

توقفت في منتصف الشارع وصحت بأعلى صوت:

- أكرهكم أيها البشر.

ثم قهقهتُ بهيستـرية وانتظرتُ أن يخرج أحدهم ويوبخني لكن لا أحد فعل ذلك، وجاء الجزء المهم أمسكتُ بعلبة السجائر، وأخرجتُ سيجارة ووضعتها بين شفتاي لكنني نسيت شيء مهم للغاية! نسيت الولاعة! أنا غبية! كيف يمكن أن أنسى! كيف سأحظى بهذه التجربة دون وجود وسيلة لإشعال السيجارة؟ هل أعود إلى البيت وأحضرها؟

بدا الأمر مستحيلًا ليس لأنني أخشى أن أعود إلى البيت لأجد صديقتي، وأهلها في انتظري لتوبيخي لأنني عديمة المسؤولية، وبالتأكيد مجنونة بالكامل للخروج إلى الشارع بهذا المنظر وبهذه الطريقة، فهذا ليس سلوكًا سويًا لكن الأمر هو أنني ضللتُ الطريق ولا أعلم أين أنا بالضبط! يبدو أنني مشيتُ إلى حيث لا أدري.

مع ذلك لم يبدو على وجهي الندم أو الخوف أو أي شيء، وحتى لم أفكر في الاتصال بصديقتي لتأتي لنجدتي بل أحببتُ إحساس التيه، أن أكون تائهة في مكان لا أعلمه ولا أحد يعلم عني شيئًا، رغبتُ في أن أستيقظ وأجد نفسي في مكان غير المكان وزمان غير الزمان، كان ليتغير الكثير، الأمر يستحق التجربة صدقوني، لا بأس ببعض المغامرة.

أحيانًا يجب علينا فعل شيء خارج عن المألوف، شيء بنكهة الجنون وبمذاق المغامرة والنشوة، الحياة الطبيعية مملة للغاية وشرحت ذلك الموضوع لصديقتي لكنها تفضل الحياة الطبيعية تخشي خوض التجربة دائمًا،

يســتهويها الخوف من كل ما هو جديد، تخشــى الاقتراب من غير المألوف. تتقوقع داخل نفسها تخشى الأذى مع أنه لا مفر منه.

بذلتُ قصــارى جهدي لأعلمها أن بعض الأشــياء في حياتنا يجب أن نقابلها بأن نطلق العنان لأنفسنا لنطير كالطيور لكنها كانت تقول لي هازئة:

- نحن بشر محرم علينا أن نطير فليس لدينا أجنحة!

اعترضتُ قائلة:

- هذا ما نظنه صــدقيني، لكننا نســتطيع أن نحلق حتى أبعد من الطيور لو قررنـا أن نفك وثـاق روحنـا، أن نفعل مـا يحلو لنـا، أن نتوقف عن الاهتمـام بالآخرين كما ينبغي وعوضًـا عن ذلك نسكب هذا الاهتمام داخل وعاء قلوبنا وروحنـا، أن نتوقف عن بذل ما هو فوق طاقتنا، ألا ندع للتراكمات أن تتحكم فينا ونطلق سـراحها أول بأول قبل أن تحتشـد بعضـها فوق بعض فنكون بعد ذلك عاجزين على أن نواجهها فقد صـنعت حصـون منيعة لا يمكن دكها، أن نبكي في الوقت الذي يستلزم البكاء، أن نستلذ باللحظات السعيدة حتى الرمق الأخير، أن نتوقف عن الخوف من وحش المستقبل، أن ندع الأمور تسير كما ينبغي دون أن يتســلل إلى قلوبنـا الخوف من القـادم؛ أريـتِ كيف أن الأمر بسيط؟

ضحكت طويلًا قبل أن تجيب:

- معكِ حق؛ يا له من أمر بسيط فعلًا! الكلام سـهل لكن التطبيق صـعب، إنها مجرد حروف لا تسـتطيع التحكم بنا إلى البعد الذي تتخيلنه، حروف ضـعيفة لن تستطيع محاربة ظلم الحياة وقيودها.

- هذا كلام الضـــعفاء يـا صـــديقتي والذين لا يفكرون في بذل الجهد لأجل أنفســهم، وأنتِ طبعًا من ضــمنهم، مجرد المحاولة لن تضــر بشــيء، يكفي شرف المحاولة.

فتنهدت بأسى وأردفت ييأس:

-معكِ حق، أنا على رأس القائمة!

ابتسمتُ عندما تذكرتها، صورتها تحلق في خيالي، أردت أن أعود إليها وأن أجعلها تســتيقظ لنحظى ببعض المتعة ولو لســويعات قليلة، التقطت لنفســي مزيد من الصــور، المهم أنه قد تبادر إلى ذهني أن أطرق الباب على ســكان العمـارات من حولي وأطلـب ولاعـة وبعـد ذلـك عـدلـت عن الفكرة ورفعت صوتي في وسط الشارع لأقول:

-هل مع أحدكم ولاعة يا أهل الخير؟ لا تكونوا بخلاء وارموا لي بها؛ أريد أن أشـعل السـيجارة قبل أن توبخني صـديقتي، يا أهل الخير البخلاء، هل من مجيب؟

لم يرد عليّ أحد وأكملت مسـيرتي بلامبالاة وأنا أقفز في الشـارع ولم أتوقف عن الغناء والرقص وتحريك شـعري يمينًا ويسـارًا وكنت أبحث عن سـوبر ماركت لشـراء ولاعة وشـيء أكله فقد بدأت معدتي تستنجد بي لألبي ندائها، بدا الشـارع سـاكنًا ربما بسبب التوقيت المتأخر من الليل، فقد أوشكت الشمس على أن تشـــرق، وأخيرًا وجدت ضـــالتي، وها هو ســـوبر ماركت الحج "محســـن" فاتجهتُ إلى الحج "محســـن" وأنا أقفز من فرط الســـعادة لأنني أوشكت أن أفقد الأمل في إيجاد مكان لسد جوعي.

فرحتي لم تكتمل لأن المحل كان مفتوحًا لكن لم يكن هناك من بائع، انتظرتُ فترة بينما أتفحص بعينيّ عظيم ما يبيع، كل ما تشتهي الأنفس يوجد عند هذا الرجل الرائع، فبدأت رحلتي في هذا المحل الواسع على أمل أن يأتي وبدأت بإحضار "البيبسي"، "الشيبسي"، "المولتو"، "البسكويت"، "الشوكولاتة" لتكتمل فرحتي، اشتريت الكثير من الأشياء ولكن بغتة تسلل إلى عقلي خاطرة أزعجتني كثيرًا وأشعرتني بالحزن؛ فقد نسيت المال!

كيف لي أن أخرج من البيت دون أن يكون معي مال! هل كنت أظن أنني سوف أجد كنز علي بابا في الطريق! أفقدتني هذه اللحظة شهيتي، وجلست على عتبة المحل في انتظار أن يأتي عم "محسن" ربما يوافق على أن اشترى "شُكك" ثم سأرد إليه المال في الصباح.

جلستُ فترة طويلة لكنه لم يأت، فبدون وعي تسللت يدي إلي كيس "الشيبسي" ثم "البيبسي" وسرعان ما انهلتُ على الغنيمة التي في حوزتي، وبدأت في التهامها باستمتاع ونسيت أنني مديونة بالمال للرجل الذي أجلس في محله ومن الممكن أن يأتي في أي لحظة ليطلب الشرطة ظنًا منه أنني سارقة ولست بنت ناس كما يبدو من ملابسي وشكلي.

لذا فكرتُ في كتابة ورقة له أتعهد فيها بأن أرجع ماله في الصباح مع ذكر المشتريات التي ترقد في سلام في معدتي الآن، ولحسن الحظ وجدت ورقة وقلم ونفذت ما في رأسي وتركت الورقة واستمررتُ رحلتي التي لا أدري متى ستنتهي.

تعبتُ من المشـي دون وجهة وتسـرب إليّ بعض الإحسـاس بالتعب مع ذلك كافحت واستمررت، وبينما أسير وجدت شـيء استرعى انتباهي، كان هناك رجل يبيع الذرة المشـوية، اسـتغربت من وجوده في هذا الوقت المتأخر من الليل، والغريب أنه يشـوي الذرة بنشـاط ولم يكن هناك رجل واحد يسـير في الطريق أمامه ومع ذلك تابع ما يفعل في همة ونشـاط وقفت أراقبه من بعيد، أتـأمـل مـا يفعـل، كـان يجلس على قـارعـة الطريق دنوت منـه بعد أن وجـدت معدتي تقرقر من جديد كمـا لو أنهـا لا تشـبع أبـدًا ولـذا لم أحرم معدتي من طلبها ودنوت بكل ثقة ونسيت كوني ليس معي أي مال ولكن سأكتب له تعهدًا إذا كـان يمتلـك قلم وورقـة؛ ومن بين طيـات الظلام اسـتطعـت تميز ملامح وجهه علي ضوء عمود النور الضعيف.

- السلام عليكم.

رد التحية قائلًا:

- وعليكم السلام يا ابنتي، هل تريدين كوز من الذرة؟ إنها ساخنة ولذيذة.

- أجل من فضلك.

- حسـنًا سـيكون جاهزًا في غضـون لحظات، يمكنك الجلوس إلى جانبي إذا أردتِ.

فعلت ما طلب وأنا أتأمل ما يفعل باحترافية يحرك الذرة يمينًا ويسـارًا دون أن يحرق أصـابعه، أردت أن أسـأله هل تشـعر بالألم وأنت تحرك الذرة الساخنة على النار؟

ولكن وجدته فجأة يقول:

- أكل العيش يا ابنتي.

اتسعت ابتسامتي كدهشتي تمامًا وابتسم هو بالمقابل بوجهه السمح، وبدأ يتحدث معي عن أشياء مختلفة أنه رجل بسيط من محافظة البحيرة وجاء إلى القاهرة بحثًا عن لقمة العيش وهو يعيش مع زوجته ولديه خمسة أبناء من الإناث والذكور وأنهم يعيشون في شقة بسيطة بالدور الأرضي.

فجاء إلى عقلي سؤال قررت أن أطلقه:

- وهل أنت سعيد؟

- بلى يا ابنتي؛ أنا سعيد في حياتي والحمد لله وبفضل الله استطعت أن أزوج أبنائي فكيف لي ألا أكون سعيدًا وأنا غارق في نعّم الله التي لا تعد ولا تحصى لكن الإنسان بطبعه كفور، لا يدرك كم النِعَم في حياته وإنما كل ما يستطيع فعله هو الشكوى لا أكثر، وأنا الآن أقضي ما تبقى من حياتي بحثًا عن الرزق الحلال من أجل زوجتي.

تأملتُ كلماته الجميلة بكل حواسي وأنا أحثه على قول المزيد والمزيد؛ كبار السن هم أكثر الفاهمين لهذه الحياة المعقدة، لديهم من الخبرة ما يكفي لكي يعيشوا بسلامٍ داخلي، حدثته عني وعن صديقتي التي لم تغب عن بالي للحظة وأعطاني الكثير من النصائح التي سأحملها إليها عند عودتي لكي أمتص غضبها بسبب ما فعلت.

أردت أن أسأله إذا كان معه ولاعة، لا أستطيع أن أقتلع من رأسي السيجارة التي في حوزتي، بريق التجربة لا أكثر يحلق أمامي ويتراقص باستمرار.

فقلتُ بخجل:

- هل معك ولاعة؟

ضحك طويلًا وأجاب:

- التدخين مضر بالصحة أيتها الشابة؛ وبما أن جسدي ليس ملكي لذا أنا لا أتركه عرضة لمثل هذه الأمور التي من شأنها أن تهلكه، إنها أمانة علينا الحفاظ عليها.

- كلامك كله حكم والله.

- تعالي كل يوم لتستمعي إلى المزيد، سأنتظرك.

- أعدك أنني سآتي إليك برفقة صديقتي.

- وها هو كوز الذرة يا ست البنات ساخن وطازج.

استلمته بين يدي كم لو كان هدية نفيسة، قضمت قضمة منه باستمتاع وتجاوزت عن كونه ساخنًا، كنت مبتهجة بجلستي برفقة هذا الرجل الطيب الذي يجعلني أشعر أن الزمن لا يزال فيه خير وفير، والآن يبقي الجزء الأهم وهو أن أخبره أنني سأحضر له المال في الغد.

فغمغمت بإحراج:

- في البداية أريد أن أعتذر منك علي أمر ما...

وقبل أن أكمل قاطعني قائلًا ببشاشة:

- أعلم ما تريدين قوله.

فاختبرت ذكائه وتساءلت عما أريده. فتابع:

- ليس معكِ مال، وأنا لم أطالبك به! إنه هدية لكِ يا ابنتي، آسف طبعًا لكونه هدية لا تليق بمقامك يا ست البنات لكن هذا ما أستطيع تقديمه، وسأجهز واحدًا لصديقتك بشرط أن تعودي في الغد برفقتها.

تهللت أساريري وعجزت عن الرد عليه، فأحضر لي الكوز الآخر وودعته ورحلت بعد أن وعدته بالمجيء إليه في الغد وهو سيكون في انتظاري.

رحلتُ ولا يزال قلبي معه بعد أن حصلت منه على حكم من ذهب لا تقدر بالمال. حاولت تذكر طريق العودة ولكن لاحظتُ فجأة أنني لا أحمل هاتفي وإنما هاتف صديقتي، تجرأتُ وفتحته وأعلم أنها لم تكن ستمانع، اتجهت إلى الصور، تأملتها وأنا ابتسم، لكن تلاشت ابتسامتي عندما وجدت أنها لا تزال تحتفظ بصور خطيبها.

تألمت كثيرًا وشعرت بغضب عارم واستغليت كون هاتفها بحوزتي ورقمه لا يزال علي الهاتف وأرسلت له رسالة عريضة قمتُ فيها ببث الكثير من الحقد والكره من خلال كلمات كنت أحبسها داخلي منذ فترة بسبب ما فعله بها ثم حذفت الرسالة وحذفت رقمه وصوره وكل ما يتعلق به.

شعرت بالراحة لما فعلت ولم أنسى أن أقوم بتوبيخ أصدقائها اللذين تخلو عنها في محنتها ثم محو كل ما يتعلق بهم وحدثت نفسي قائلة :

-"ستغضب مني كثيرًا وربما تتصل بالشرطة بتهمة سرقة هاتفها!"

سرت وأنا أشعر بالانتصار وأمسكت جيدًا كوز الذرة لأجلها وأمسكتُ السيجارة بين شفتاي دون أن أشعلها بالتأكيد، وصلت إلى العمارة بعد أن

تذكرت طريق العودة، تنهدتُ بارتياح والسماء بدأت تتلون برحيق الشمس استعدادًا ليوم جديد.

صعدت السلالم بهدوء وأدرت مفتاح الشقة ببطء، سرتُ على أطراف أصابعي وأعدت علبة السجائر مكانها ودخلت غرفتها وجدتها نائمة كما هي تأملتها وشعورًا عميقًا بالحزن ينخرني من الداخل.

فقلتُ باستسلام:

- بسبب السجن الذي قمتي بوضعي فيه، قررتُ أن أخرج لأخوض التجربة وحدي وفكرت في ترككِ ، وأدركتُ أنني عاجزة عن فعل ذلك لأننا كيان واحد مهما كان الصراع دائم وقائم بيننا.

ولكني في النهاية، وللأسف، عدتُ إلى قفصي من جديد. فقد كنتُ بالنسبة لها رغبة مكبوتة، صراع داخلي، أمنية مدفونة أرادت أن تتحرر وتطلق العنان لنفسها ولو ليومٍ واحدٍ.

الفهرس

Contents

إهداء إلى:.....6
الحانوتي.....7
الويكي ويكي.....13
إليك أكتب.....21
المسوخ.....33
المرأة الثعبانية.....41
العمر لحظة.....48
ماذا يحدث؟.....53
دعينا نلتقي.....70
حواء.....82
ليلة تحدث من العدم.....88

للنشر والتوزيع